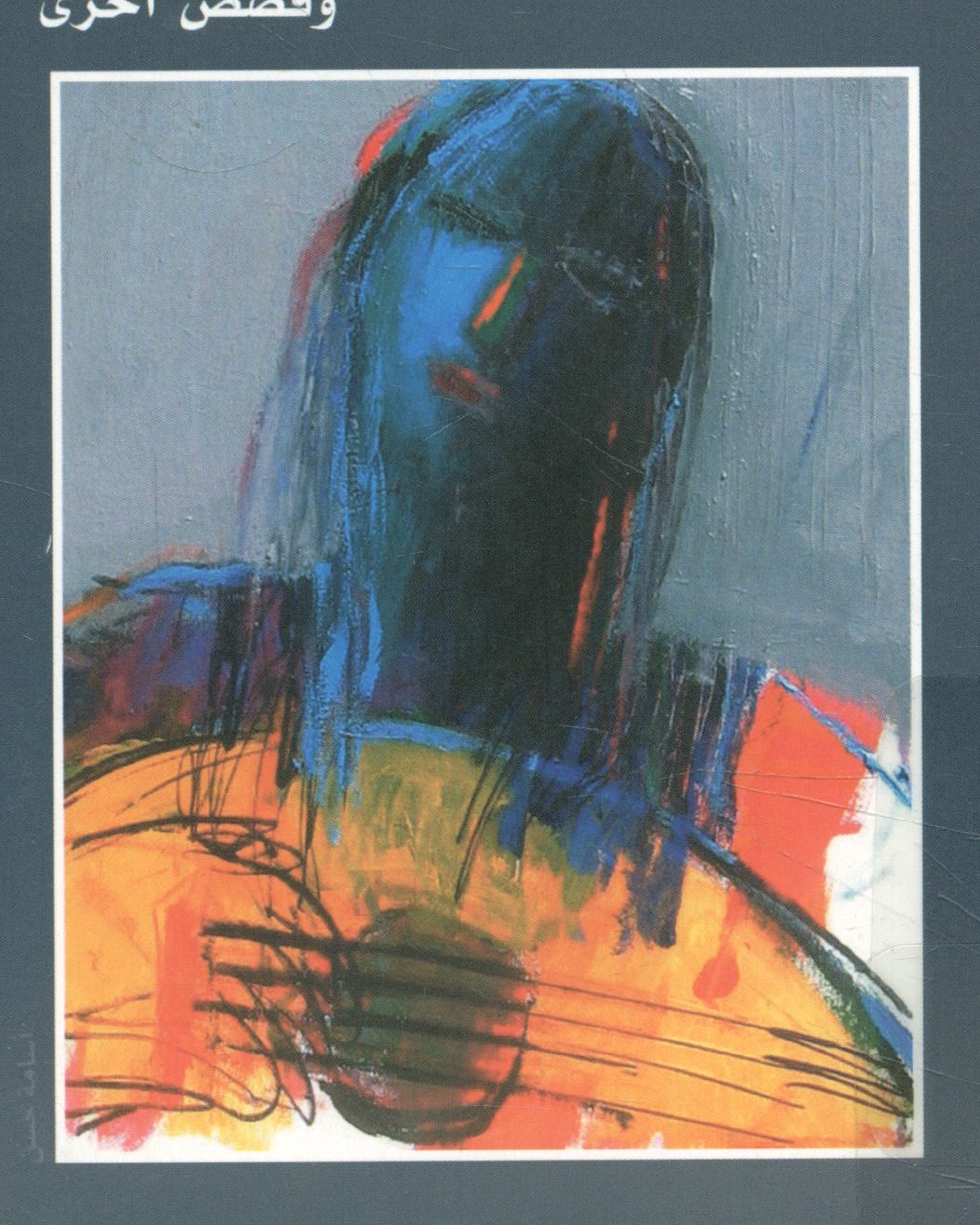
أحمد خضير

في
وقت متأخر من الشوق

وقصص أخرى



دار العصماء

في
وقت متأخر من الشوق

وقصص أخرى

في
وقت متأخر من الشوق

وقصص أخرى

أحمد خضير



الطبعة الأولى
1432 هـ 2011 م





الكتاب - في وقت متأخر من الشوق
الكاتب - أحمد خضيّر

دار الحكمة
DAR AL-HIKMA
Publishing and
distribution
88 Chalton street
London NW1 1HJ
TEL-02073834037
FAX-02073830116
hikma_uk@yahoo.com.uk

فرع أول: سورية - دمشق - برامكة - جانب دار الفكر
قبل دار التوليد - دخلة الحلبوني
هاتف: 2224279 -11-00963 - تلفاكس: 2257554 -11-00963
فرع ثاني: دمشق - ركن الدين - السوق التجاري
جانب مجمع الشيخ أحمد كفتارو
هاتف: 2770433 -11-00963 تلفاكس: 2752882 -11-00963
ص.ب: 36267 موبايل: 944/349434 -00963
E-mail:daralasma@gmail.com

طبع في دار العصماء - دمشق بتخويل من دار الحكمة - لندن

في وقت متأخر من الشوق

تقعرت حيرته وهو يتلمس حداً فاصــلاً بــين الــوهم والواقع، وقف (وشم المحمود) خلف إرثه الداخلي، وتــرك أسئلته المتداعية بلا جواب، جفف بعض قطرات ندية، تمــتم وهو يقرأ في الوجوه رغبة أولئك الــذين يزمــون حقــائبهم بإصرار وفي داخلهم شوق.

الأيام الماضية انطفأ بريقها دخلت طي العتمة، غارت بعيداً، لن تعود. إن استحضرها كذكرى، سرعان ما تهرب لتتوارى بين زوايا الليل الهابط والظلام الثقيل. الأيام القادمة غائمة، لا أحد يعلم كيف ستكون. حكم عليها القدر أن تــأتي صامتة كهدية للمناسبة، في موعد لا يعرفه وفي يوم قــد لا يكون شاهداً عليه.

حاول إجراء بعض التعديلات في مواقع مهمــة مــن الذاكرة فأنزلق مع أولوياته وفقد ما كان أهم، ولم يعد قــادراً على لم رتقها أو إخضاعها لحساب المجهول. كان منقــسماً على ذاته كأنه يتربص بنفسه، وهو يلف حــول إطــلالات عديدة تجاور بعضها، متطلعاً إلى إعلانات ضوئية مرتبكــة، فوق واجهات متشابهة الألوان مكــررة المحتــوى، كأنهــا مستنسخة لولا فوضى الأسماء.

مضى ينوء بحمله تحت ثقل المساء عندما لاحظ أنهم يصرون وبالتساوي على اقتناص الراغبين بالسفر، فضلاً عن إصرار مضاف لإكساء مساحات أخرى بصور ملونة، تعبر عن حالة انزلاق وتسطح بالذوق ، كأنهم أعدوا العدة ليمرقوا من تحت بوابة واحدة، بأسماء وعناوين مختلفة خارجة عن السياق.

ما بقي من زوايا أو هامش في جدار، فقد خصص لأرقام هواتف وأسماء مدن بعيدة، وصور لحافلات كبيرة وأدعية داخل أطر نحاسية معلقة فوق رؤوس أولئك الجالسين خلف بضاعتهم وسط الضجيج.

بعضهم مهّد لأدعيته باستهلال مشوق ونصح بقراءتها عند أول نقطة تفتيش، ومكاتب أخرى أكثر رصانة ذكرت أنها أدعية مستحبة، وضمنتها تسلسل إصدار، على أنها جزء ملحق بأوراق السفر.

عندما فرغ من قراءة الأدعية بإمعان وتركيز شديدين، لم يتوقع ذات يوم لسبب أو لآخر، أنه لن يتمكن من اجتياز نقاط التفتيش ما لم يتشبث بتميمة، أو يشبك على صدره نسخة من دعاء.

اختار وشم المحمود لوحة ضوئية، ترفع عنوان شركة تطل واجهتها على فسحة الشارع، اجتاز ممراً متواضعاً، وجد نفسه بدون مقدمات وسط غرفة تحيط بها ألواح وصور بارزة كالحة اللون، وعلى الجانبين كراسي موزعة من غير انتظام، وعند نهايتها شاهد رجلاً بديناً يجلس خلف مكتب واطيئ، منهمكاً مع زبون بادٍ عليه الاستياء.

أعاره البدين بعض اهتمام، ابتسم له ابتسامة ذات معنى، وأشار بيده إلى كرسي قريب، كأنه أراد أن يبلغه رسالة بالانتظار، ريثما يفرغ من الرجل الذي بين يديه.

بدا مستعداً لتبديد الوقت، رأى أن يستعلم أولاً عن آلية الخدمة، وعن (الباصات) الحديثة ذات الأربعين راكباً أو أكثر، لأنه يعتقد أن العلاقة مع هذا الحشد وإن كان لا يعرفهم، فهي وثيقة، لحد الموت. فضلاً عن ذلك، فإنه لا يريد أن يعود بحافلة كتلك التي حشروه بداخلها وأغلقوا الباب؛ وما زالت الذكرى تطارده؛ لم تكن ذكرى؛ كان كابوساً؛ وسحنات لا يعرفها وأغراب بزي المغاوير؛ هرب السائق بهم؛ واستلموا الشارع بروح الناجين من الموت؛ وطووا الطريق طياً كأنه درب من الأزمنة السحيقة يمر بمدن منسية ويرتمي منهكاً عند شواطئ البحر.

قطع البدين أفكاره عندما باغته مرتدياً ابتسامة أخرى، غير التي رحب بها حين دخل عليه. كانت هذه المرة ذات طابع مهني، وتدرج منسجماً مع أسئلة افتراضية، كأنه أعدها مسبقاً، وتدرب عليها كمحترف بصنعة الإعلان. بدا معرفاً بالحافلة ورفاهيتها، مثنياً على مهارة (الكابتن)، وهو جواب لسؤال لم يخطر بباله، وشك إن كان غيره قد تحرى عن هذه المهارة، لكنه تطوع ليضيف الثناء، واعتبر المسافرين هذه الليلة من أصحاب الحظوظ السعيدة، ولم يتواضع لبيان سر هذه السعادة. بعد فترة حداد قصيرة، كما لو كانت مخصصة لقياس مدى التأثير، امتدت يده بحركة متقنة، أمسك بقرص مدمج وألقمه في فم جهاز الحاسوب، وضغط على الزر،

تطلع إلى الشاشة، بعد وشوشة عابرة، ظهرت حافلة سياحية بصفاء، ومسافرون بملابس سابغة ورفقة مهذبة، صعدوا متقاطرين، يحملون حقائب جلدية، ومن خلال منفرج الزاوية انكشف الشارع بلقطة جانبية كأنه محجوز لاستعراض المركبة السعيدة. وكردٌ فعل لا إرادي، اعتبر الصورة مزيفة عندما قارنها بصورة تلك الحافلة، حين أرغمت لتنشط عن الطريق، وأطبق عليها ملثمون وهي تنتفض كسمكة خارجة لتوها من الماء، واقتادوها في ذلك الامتداد اللامتناهي من الصحراء وتركوا لذاكرته الموت الذي لا يملك ذاكرة، سحب نظره عن حائط الألوان المتداخلة، تسمر الوقت، تحجر عند العاشرة ليلاً، عندما تخلى عن ردة الفعل المربكة، واستهل إقراره مرتاباً وهو ينظر إلى البدين بصمت، ولم يلبث طويلاً حتى أعلن عن رغبته بتذكرة سفر واحدة إلى بغداد.

كان في حالة انسجام مع عودة معلنة، عندما ترك محل إقامته المطل على ساحة واسعة في الشام فوق ذلك المرتفع من (حي المنارة) قرب بناية يلفها الصمت، لا تبعد عنه إلا (بفركة كعب) كما يقال، أخذه الطريق إليها حذراً صامتاً متشابكاً، فظنها مصحاً نفسياً، أو مكاناً صد عن الغواية بعيداً عن الشيطان، ولولا اليافطة، ما كان لأحد أن يستدل عليه، لا حس ولا همس إلا فيما ندر قد يكون لرفرفة طير فاجأه عندما تسلق الدرب المحصور بين الشقق والانحدار، ليعرف فيما بعد أنه أمام المعهد العالي لإدارة الأعمال.

إن أجمل الأشياء تأتي مصادفة وأحلاها تأتي بلا مواعيد، وأكثرها حزناً تأتي كالقدر. كان قدره أن يسكن في

برزة. في برزة لا توجد أشياء وسط، وكان عليه أن يختار بين الإقامة واللاإقامة، وحين لا يجد الإنسان فرقاً بيِّناً بين الرفض والقبول، فذلك يدل على أنه يعيش أسوأ الأوقات.

عندما جاء العراقيون إلى الشام، اتجهوا إلى كل المدن، وحطوا متعبين عند أبواب دمشق، ضجت (السيدة زينب) بهم، وضاقت (جرمانا) يوماً بعد يوم، تسربوا إلى قلب المدينة، وامتدوا إلى ما يعرف بالريف، حفظوا الأسماء كلها، وعرفوا عدد حمّاماتها، التي يقال أنها كانت سبعة وخمسين، واكتشفوا شوارع لا تحصى وحارات لا تعد، تحمل أسماءً من الحاضر، وأخرى تطل من على صهوة جواد، أو تستريح في باحة مسجد، كمسجد الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي، صاحب البركات الكثيرة، مؤلف السفر الخالد "مفاتيح الغيب".

أو تتكئ على رمح من الماضي في حلب كحارة سليمان الحلبي، الذي قام بقتل "كلبرت" قائد الجيوش الفرنسية التي أبحر بها نابليون وغزا مصر.

أما جرمانا التي سكنها العراقيون لحد التخمة، فلا علاقة لها بالإمبراطور هليوم، ولا بالقائد بسمارك، ولا حتى بعنصر واحد من الجرمان.

يقول "الشوام" جرمانا مأخوذة من "جر مائنا" والقول لا يخلو من شكوى، ورجحه العراقيون، لأنهم طالما شكوا من شح الماء.

حين وقف على بعد سبعمائة ذراع من الجامع الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك، وسأل عن اسم المكان، قالوا

"البحصة" ومن يومها أصر على أن البحصة قلب دمشق، وهو اسم ظل يردده وبقي شغوفاً به لوقت طويل، إلا أنه تراجع فيما بعد حين عرف أن البحصة بحصتين واحدة (برّانية) وأخرى (جوّانية).

في الشام كثير هي الحارات التي تصنفَ ريفاً وهي بعيدة عن التصنيف، وحي المنارة في (برزة) يصر مختارها على أنها ريف وهي ليست من الريف، نمطها حضاري ومساكنها مسبقة وسقوفها خمسة.

لقد سكن العراقيون في الفلل والشقق والدور، ونالوا لقب الإخوة، وفيما بعد حصلوا على عنوان (لاجئ) وعلى صفة مماثلة من دول أخرى، تحت عنوان لاجئو العراق الجديد، ولكن في حي المنارة، لا توجد عناوين، ربما لارتفاعها الشاهق، أو لأن نصابهم لم يكن قد اكتمل ليحصلوا على عنوان.

لم تكن إقامته في الشقق المسبقة الخالية من المصاعد، قد مطت فوق ما يعرف بالسرير السياحي، إنما كانت تحت باب متابعة الأخبار على كل القنوات بوقت متصل دون انقطاع، كان ذلك قبل أن ينضم إلى قائمة العراقيين الذين يمشون في شوارع المدينة متشابهين في خطواتهم الضائعة فوق كل رصيف، يجوبون المسالك ليل نهار، كأنهم أحفاد بن عمير[1].

يمشون دون هدف، لديهم فائض من الوقت يبددونه جيئة وذهاباً، عندما جاء، وجدهم بلا عنوان، وبدأ يمشي في

---

(1) هو السليك ابن عمير التميمي – من أشهر الأدلاء عند العرب.

الشوارع كما يمشون، في جرمانا – البحصة – المزة – المرجة – البرامكة – المجتهد، في كل مكان، يتوجسون ببطء، يتلهفون ببطء، عندما تقبل (السرفيس) فقط يتخطون بعضهم بعضاً ليتوزعوا على المقاعد المتجاورة، تلك التي لا تسمح بخصوصية الحوار، إلا أنها تسمح بوظيفة جابي لمن يود الالتحاق، يفتحون الأبواب، يغلقون الأبواب، يجمعون (الفكة)، لا بأس، إنه الزمن المضاد، كل هذه المسافة بخمس ليرات، مضافاً إليها فرصة مجانية للفوز بعنوان (صبي باص) تعويضاً عما كان يعرف بالسيد المدير العام.

وكما لو كان قد توقف عن الجري تواً وجد نفسه أمام البدين وجهاً لوجه؛ ابتسم له ابتسامة غامضة وسلمه تذكرة سفر ورقية وأعاد له الجواز ملصقاً عليه إعلاناً. امتعض، رفض أن يحمل بحقيبته حبل غسيل، واعتبر البدين الذي يجلس أمام الصور، لا يفقه شيئاً رغم العناوين التي تحتل الجدار.

بدأ يحك الإعلان بأناة، حتى لا يقشط الغلاف، متأففاً من انتهاك خصوصية الأشياء. استغرق وقتاً، وحين أوشك على الانتهاء، رفع بصره، كمن أعد مفاجأة للتحدي، لكنه لم يجد أحداً، كان مكانه شاغراً، وعجب لاختفائه، وخمن وهو يتطلع مستفسراً أن الحافلة أزف موعدها. في تلك اللحظة عاد البدين متذمراً، وأخذ يحث من كان هناك على اللحاق.

التقط حقيبته وخرج مسرعاً، وما إن تدارك الواجهة المطلة على الشارع، حتى غمرته سحابة سوداء، كانت الحافلة تبتعد وتجر وراءها خيطاً من الدخان، وكلما نأت

تشظى طيفها اللماع وتداخل مع الألوان، عندما لم يعد يميزها، رمى حقيبته على الأرض وهو في حالة استياء.

استعاد البدين دوره، حاول أن يطمئن الجميع، أعاد جدولة الزمن، واعتبر الوقت المعلن خاصٍ بالمكتب، أما الوقت الحقيقي الذي يخص المسافرين، سيحدد في ذلك المكان مشيراً إلى النقطة التي تتراقص عندها الأضواء. وأخذ يكيل السباب (للسائق)، متناسياً ما روج له من سعادة موعودة لأصحاب الحظوظ. وانصرف إلى رجل وحشره إلى جوار سيدة داخل سيارة (فان) محملة بالحقائب، وعندما وجدت السيدة نفسها محشورة هي الأخرى أخذت تصيح، أعادها إلى جوار النافذة، والتفت إلى وشم المحمود وقال: آسف، لم يعد لدينا مكان، وأضاف.. حقيبتك ممكن، هل تود إرسالها؟

وكرد فعلٍ غير إرادي قطب حاجبيه، ورمقه بسخرية وهو يقول:

- هل أعتبر اهتمامك بحقيبتي جزء من الرفاهية الموعودة؟

رد البدين بضيق:

- إنه مجرد اقتراح، وإذا كان لا يعجبك أنت حر، هناك عند أول دخول سينفرج بك الشارع من اليمين ويقودك إلى المكان.

أهمل دلالته، تجاهله ببرود، وأرخى خيطاً كان على وشك أن يشده، عندما تطلع إلى ساعة الواشية بالضيق.

ترك وراءه صور العجلات الصغيرة مسرعة على الطريق، متخفية هاربة بين الشاحنات، لم تعد الأدعية تشغله، تركها في المكتب.. تركها ملصقة في ذلك الفراغ الذي تحتله لوحة الإعلان.

وانهمك بحقيبته متلكئاً، لم تكن مربكة لذاتها، إنما كان لها مضافاً ما هو خارج الوقار.

رغب أن يلجأ لسيارة أجرة، إلا أن الشارع لم يكن سالكاً بسبب الاكتظاظ، وسعى ليوازن خطواته في نهر الشارع، يحفزه إحساس داخلي بالتضامن مع الذات، وأنه يملك فائضاً من الرغبة للوصول.

كانت المحلات متلاصقة، والباعة من الجهتين يفترشون الأرصفة بعضهم فوق بعض، والعربات اليدوية منتفخة بأشياء بائسة يتعذر عدها، قطع كبيرة مهملة، وأخرى صغيرة ناعمة تنزلق على سطح الذاكرة مربوطة بخيط.

قرر تجاهل هذا الكم المعروض تحت أنابيب (الفلوريسنت)، ورغم الوقت المتأخر شاهد زائرات جميلات يتطلعن بحياء، استدل عليهن من فوضى الألوان، (جوبات)، أغطية رأس، مآزر، انهيار حقيقي في خطوط الموضة، وأكثر من (جينز) يعلن عن نفسه تحت معطف طويل.

عقد صلحاً مع حرارة الألفة، تقدم مسرعاً بين الفراغات، تطلع إلى بوابة في سور بارتفاع متوسط، تبينت ساحة تشع منها الأنوار، وتجمع من غير ترخيص، كأنه حدث صدفة لصبية عاطلين، كان التباين نمطاً واللغط كثير،

والباعة منهكون أجهدهم الإلحاح، ولم ير يافطة معلقة تحدد ساعة القيام، كما هو في محطات (الأوتوبيس)، ولم يشاهد ظاهرة أولئك الشباب الذين يحملون أمتعتهم على ظهورهم مربوطة بشريط، ولم يتفاعل لحشره في مرآب بهذا الإرباك.

ثمة غجلات متوسطة قرب المدخل، وبعض حافلات كبيرة، ميز من بينها تلك التي تجمع حولها الناس، قدر أنها واقفة تحت الانتظار، قاده صوت رجل يقف في الساحة منادياً بالالتحاق، المسافرون في ذلك المكان تشي وجوههم وجهة واحدة، ملابسهم تدل عليهم، تجمعهم، والقلق الشديد.

قبل أن يلحق بهم، أحس بشخص يتبعه، اقترب منه، انحنى ليسأله، إن كان راغباً بحجر كريم، كان مرتبكاً ويحمل بيده خواتم فضية، لها أحجار ملونة، ولما رأى علامات الخطر بادية عليه، تراجع إلى الخلف، ورمى حمله على الأرض واستعد للمفاجأة، تطوع بائع جائل لا يدري من أين ظهر، يحمل رزمة من الصور لرجل دين بعمة سوداء، وحجز بينهما، تمتم بكلمات لم يفهمها، فابتعد عنه. أسرع والتقط حقيبته ومضى، وقلبه لا يزال يدق بقوة، لم يشعر بالارتياح، رغم أن الجائل تصرف بلباقة من تمرن على امتصاص الفضول.

تساءل بحياد، هل هناك ما يربط بينهما؟ هل هناك ما يميزه عن مسافري هذا الاتجاه؟

عند أول السلم قدم جواز سفره لمقابلته مع التذكرة الورقية، كان السائق متمهلاً، ولم يشعر نحوه بالنفور الذي

أحسه تجاه المساعد الذي دله على مقعد متقابل، تقدم واتخـــذ له حيزاً لصق النافذة، مؤجلاً فحص المكان.

كان استياؤه بادياً وهو يلعن موظف الخدمة الافتراضية الذي تدرب على التزوير عندما اكتشف أنه يتعـــاطى لعبـــة الكراسي، أو ما يعرف باسم بيع الركاب، وكل ما لفقه عـــن احترام المواعيد لا يعدو عن هراء، ها هي المقاعد شاغرة، وفي ذهنه كانت الصورة أبهى وأجمل من هذه العجفاء.

جلس يستقبل الهواء الجاف الهابط بدون برودة، تـــرك الكرسي ووقف في منتصف الحافلة، سأله المساعد:

– هل من خدمة؟

سأله بدوره:

– هل يمكن غلق هذه الفتحة؟

أعتقد ذلك، أجاب المساعد وأضاف:

– تفضل، افسح الطريق حتى أقوم بواجبي.

– لم تعد لي ثقة بواجباتكم.

– بسبب التبريد؟

– لا، إنما هناك أسباب أخرى.

– مثلاً!

– الحافلة. وأدرك المساعد أنه يعني شكلها الذي لا يدل على أنها مهيئة لرحلة طويلة إلى بغداد.

– المهم الجاهزية وليس الشكل.

– الشكل من متممات الجاهزية.

- الجهة المالكة قررت أن تكون هكذا.

- لكن (البدين) موظف الخدمة الافتراضية، اعتبرني من أصحاب الحظوظ السعيدة، هز المساعد منكبيه باستهانة وقال:

- الحظ السعيد معجزة.

- أفهم من كلامك: أن عصابة ما، يمكن أن تلتقطنا عند مشارف بغداد؟

- لا أعرف، عملي مهني ولا علاقة لي بالسياسة.

- نحن جميعاً مهنيون.

- ما هي مهنة الأستاذ؟

- أحس وشم المحمود بالحيرة، هذا هو السؤال الذي لم يجد له جواباً سريعاً لحد الآن وتساءل في نفسه: (ترى كم عدد الناس الذين يتعثرون بهذا السؤال؟) كما لو كانت مفارقة مؤلمة، تذكر تلك الأعداد المرتمية على الفضائيات ليلاً، تمارس التناسل تحت عنوان (محلل سياسي) ومن باب الاستعارة، رأى أن يستخدم العنوان مؤقتاً، وقال:

- محلل سياسي، كانت نزوة ندم عليها فيما بعد.

بهت المساعد، فاجأه الجواب، نظر إليه بعينين زائغتين، ثم بنصف عين، وقال:

- سأجلب لك قدحاً من الليمون.

ألقى بجسده عند زاوية النافذة، وراح يراقب المشهد على الأرض، رأى أماً تستبدل غيار طفلها، وإلى جانبها رجل ممسكٌ بقنينة لبن، لم يكن بادياً عليه الارتياح وهو ينظف حلمتها المطاطية يلف بإصبعه ويعصر القطرات.

واضب من وراء الزجاج وهو يرقب المشهد الحافل، كمن يقلب صفحات مجلة ملونة حاشدة بالصور.

بدا المنظر أمامه عائم، والعواطف من غير عناوين، برقت له فكرة أخذ عينة اعتباطية للمودعين، رغب أن يوظفها في لعبة اكتشاف نسبة التذبذب الحاد للسفر بأحلام قابلة للوأد.

بدأ بعملية فرز بين حملة التذاكر، وبين من جاء للتوديع، اقتنع بعسر المهمة، لم تكن باليسر المتاح، أنه يحتاج إلى إملاء فراغات بين وجوه عديدة ليهتدي إلى من جاء للسفر، ويستدل على من جاء للتوديع.

اكتشف أن دائرة استطلاعه تتضمن أعداداً كبيرة من المودعين، ربما بسبب الجوار المستحب تبركاً بالمكان، كان أغلبهم من سكنة (السيدة زينب)، وبعضهم من جرمانا، توصل بعد ربط خيوط خبرته ببعضها، أن البقية قد استرخى الزمن عندهم، وجاؤوا لتعاطي جرعة من النسيان.

عندما جال بعينيه توقف عند امرأة نحيفة محشورة ببنطال ينتهي ببطتيها وتنتعل حذاء بكعب متوسط متصل بحلقة شفافة عالقة بمربط رقيق، اعترف أنها ترتدي البنطال ببراعة تحسد عليها.

لم يكن وشم المحمود (دزاينر) ولم يسبق له أن التقى بمصمم أحذية، إلا أنه قرأ عن مصمم أزياء، أقيم له احتفال كبير وسط حشد من حاملي آلات التصوير يوم وضع توقيعه على فستان. إضافة لمعرفة أخرى تمت عن طريق (أمينة

البحيري)[1] برجل أعمال بشروط المرحلة، أعلن عن نفسه "دزاينر" أو هكذا فضل أن يناديه الناس، كان يحلم بالانتشار، وبقي حالماً إلى أن جاءته الشهرة عندما تخلى عن رغبته وأصبح بائعاً للكباب.

وبعيداً عن الأضواء رغب أن يتسلل إلى هذه المهنة، ربما استهوته لتبديد السأم، رغم أنه بعيد عنها ولم يسبق أن علق بها تحت أي ضغوط، إلا أنه يذكر جيداً حكاية ذلك المزين الذي أصر على مناداته بهذا العنوان، حين تعرف عليه في صالة انتظار المغادرين إلى بيروت، كان لبنانياً طموحاً، واعتبر نفسه "دزاينر" عائداً من باريس يحتضن جائزة فاز بها للتو عن تصميم وتنفيذ "تسريحة المساء" وإلى جواره شابة معمولة بعناية، بدت فخورة وسعيدة بهذا الإنجاز، ومن بين دفقات يبثها، قال: (ربنا وفقنا وعملنا تسريحة). ولم يكن وشم المحمود وقتها يستوعب إن كانت التسريحة توفيقاً من الله، ولكن استطاع بعد الاحتلال فك عقدة المصطلحات، وعرف كيف يكون الصمت تعبيراً عن حالة فرح طوعي، وكيف يكون الانبطاح منسجماً مع الذات. وعرف أن التوفيق يقام كل سنة قبل أعياد الميلاد، ومفتوح لكل المشتركين، لقاء بدل يضاف لرصيد رابطة المهنة، وترعاه بيوت عريقة كمناسبة للترويج، ويخصص لكل مشارك أستوديو للعمل والإقامة، وعليه أن يتدبر لقمته في ذلك الشارع المليء بأشجار اللوز. ويستمر العرض على

---

(1) أمينة البحيري – كاتبة مصرية (عصر الكباب) قصة.

مدى أسبوع في صالة محترمة أيضاً، مجهزة بتقنيات المهنة، وتشارك البيوت بفتياتها كموديل، حيث يقوم كل (دزاينر) بتنفيذ التسريحة التي يحب على ألا يغالي كثيراً كما فعل أحدهم وواصل إعجابه بالرقبة العارية واستمر يرفع الشعر إلى الأعلى ولم يعقد التاج. وله أيضاً أن يطلق عليها ما شاء من الأسماء، وعليه الابتعاد بحذر عن التسريحات التي تراجعت عالمياً لصالح تسريحات أخرى، وأن يولي اهتماماً خاصاً بتلك اللمسات التي تضيف على المرأة أناقة الملكات، ولا ضير من كسر التقليد والروتين عند مراعاة شكل المرأة وخاصة إذا كانت باريسية القوام.

وهنا يأتي دور أجهزة الإعلام كمروج، يحصدهم (الزوم) من جوانب وزوايا مختلفة وتفجر النتيجة تحت وهج الضوء وسيل من التصريحات، وقد اكتشف أن جميع المشاركين قد وفقهم الله، وحجزوا مقعداً في الصالة. وتوزعت عناوين الفوز على تسريحات جديدة، مبتكرة، منطلقة وجريئة... مثلاً: هناك تسريحة مهمة تعرف باسم السكرتيرة، تنشطر إلى عاملة وتنفيذية، وافتراضية، وإدارية، وخاصة، وهذه الخاصة لها مساحة وامتياز وصدور عامرة على صدر الصفحات، لذلك تحفز وهو يسترجع خبيات الماضي، رغب أن يطبق هفواته على تلك التي يسترها البنطال، عندما رفض ابتداءً ربط الاختيار برغبة مكبوتة للإعلان عن لون الطلاء. فتلك بديهية تحققها جميع التصاميم، وأغلبها يوفر فرصة إظهار اللون.

إن شكل الحذاء، ومن الوهلة الأولى، يوحي بالرغبة، ولا مبرر للاجتهاد، فهي اجتهدت لفك العقدة بأقل قدر من العناء، وبدت بقدمين باردتين كما لو أنها من ضحايا السقوط.

تسلق فضوله علم محلي طبع على ظهرها، فاسترخى قميصها الفاقع معانقاً لونه، وكان أقرب إلى التناغم لولا المشط الذي أفسد عقلة شعرها وشطرها لنصفين، كانت بشرتها تنم عن استخدام طويل للمساحيق، وعززتها بألوان مناسبة، فبدت جميلة في ذلك الوقت.

هذه الأنثى قد تكون... توقف ملياً، لأنه لا يتمكن من تحديد الجهة التي ساعدتها وربما بحسن نية لتبدد الوقت.

تمهل قليلاً لأنه لا يريد أن يكون كما كان دوماً متعجل الأحكام، هو بالتأكيد لا يعرف إن كان وقتها ثميناً، وتجهل ذوق الذي أرادت أن تنتمي عنده عقدة ما، ربما هو الذي أمدها لتبدو بهذا الـ(Look) الجديد.

هنالك احتمال آخر، إنها رأت، بعد وصولها الشام أن مظهرها يستدعي التحديث، فسعت لتكون بالشكل الذي هي عليه الآن. وهذا احتمال مرجح لأن موجة التحديث بدأت تتسارع في الشام.

كان لهذه المرأة رغبة تمارسها بإصرار على شابة لها طول مقبول يضاف لرصيدها، ترتدي بلوزة بيضاء شحيحة مطت لتدخل تحت حزام جوبة زرقاء قصيرة، بأزرار أمامية، أتاح الزر الأخير الذي ترك مفتوحاً أن يعري بشرة صافية رائقة البياض، لم تكن انسيابية مؤخرتها وهبوطها

العريض أقل إثارة، تابعها صعوداً فكشف له الضوء عن جزء من سوتيانها الأبيض، أقلقه حزنها ودموعها الصامتة ومنديلها المبتل، خيل إليه أنها تعاني حالة ضياع حصل خارج منطق الأشياء، لذلك تألم متعاطفاً معها، وتمنى ألا تكون قد فقدت شيئاً غير خاضع للتعويض .

النسوة بأعمار وأزياء متباينة وثقافات ومفاهيم وأحاديث مضطربة، سحب نظره طاوياً تلك الوجوه كما تطوى الصور الممنوعة داخل كتاب.

تقدم المساعد مرشداً شابين في مقتبل العمر للجلوس قبالته، فأحس أن الطاولة التي تفصل بينهما مديدة الاتساع، إنه معد بهذا الشكل لموقعه الوسط الملاصق لسلم الصعود، ولما وجد نفسه أمامهم وجهاً لوجه، اقتنع بالصدفة التي جاءت بهم إلى هذا المكان.

أحدهم حليق ذو وجه نضر يرتدي (دشداشة) زبدة، والآخر بقميص وبنطلون، تميزه لحية غريبة فضلاً عن ميزة أخرى تتمثل برفع الكلفة عند الحديث، وكان بسيطاً قدم نفسه باسم (دريد) وقدم رفيقه باسم (عمار) طاف بعينيه بينهما، اهتدى إلى أنهم جاؤوا على عجل ولم يبادلهم الكلام عدا عبارات فارغة.

اقتنع أنه يمتلك متسعاً من الوقت المؤجل للحديث. لم تنطلق الحافلة كما كان معلناً، كانت هناك فسحة أخرى من الانتظار، المقاعد ما زال بعضها شاغراً، معروضة بتسعيرة مطوية إلى الداخل، كبضاعة مهربة، يتدنى سعرها كلما

أزف موعد الانطلاق، وهي طاقة نقل متاحة وغير قابلة للتصدير، وبيعها بأي أجر أفضل من تبديدها بلا أجور.

لم يعد متحمساً لضبط الزمن المتداعي، أذعن لمسافري اللحظة الأخيرة واعتبرهم حالة خلقتها الظروف، حتى وإن تقاطعت اتجاهاتهم مع بيان السفر، إنهم مسافرون حقيقيون، ولهم أبعاد ثابتة، ولا ضير من رفقتهم وإن كانت حقائبهم بلا عناوين. حاول أن يمسك خياله، إلا أنه لم يتخلّ عن رغبته، وتمنى لو يمسك سوطاً ويجلد ظهر متصيدي التائهين في مرآب الانتظار.

شعر بلسعة برودة، حاول تغيير اتجاه فتحة الهواء، تطوع دريد لتحريك المغلاق، انفرط معطلاً، علق متهكماً.

- إنها بجاهزية عالية.

اقترح عليه المساعد الانتقال إلى مقعد خلفي، رفض تغيير المكان.

أزف وقت الحركة، هكذا ظن ممنياً نفسه بصدق الظنون. ظهرت تلك الشابة عند أول السلم، أمسكت المقبض، تخطت إلى أمام، إلى الجهة المقابلة، لا يفصل بينهما سوى الممر، نظر إليها عمار مستطلعاً، لم تعبأ به، حجزت مقعدين، ألقت بحقيبتها على المقعد المحاذي للممشى واحتلت الآخر المجاور للزجاج. انتقل لعينيها المهاجتين، لازالت ممسكة بمنديل تجفف بقايا دموع. تبعها رجل نحيف، تهالك خلفها، وإلى جانبه شاب بلا ملامح، اعتبر ارتقاءهم سوية وتوزعهم على المقاعد صدفة أخرى، واستبعد وجود موعد مكتوب.

لم تكن لديه رغبة سرية للتحري، أهمل خيوط الترابط، وتابع تلك المرأة صاحبة الشعر ذات الدهان وهي ترفع يدها في الهواء، تلوح من خلف الزجاج، أرسلت إلى صاحبة المنديل قبلة صغيرة، استلمتها بإهمال وضعتها تحت شفتها السفلى، وأسبلت جفنيها هاربة من الوداع.

عندما أتاح له المصباح أن يتفحص وجهها وجده بارداً وبشرتها ناعمة، كأنها استيقظت وغسلت شعرها وأخذت حماماً للتو، لاحظ مسحة طرية لقناع تعرى بعضه بسبب منديلها المالح وقد استخدمته كما تستخدم نشافة الحبر على ورق غير مصمم للامتصاص.

مساعد السائق لا يسمح للباعة، وصد كل من حاول الصعود، إلا أنه استجاب لطلب سيدة، كانت راغبة بشراء شيء لطفلها.

سمح المساعد لصبي جائل يحمل صندوقاً مدلى بشريط كصناديق باعة السجائر، سرق الصبي الفرصة واخترق ممر الحافلة حتى نهايتها، متكتماً على بضاعته، يخشى أن يبوح بها، إلا أنه دعا الجالسين في الجانبين بصمته المعلن ونظراته الموزعة على الجميع للشراء، كان الصندوق يحتوي على أشياء عديدة من بينها مفكرة جيب مدون على غلافها الداخلي أنها صادرة عن مؤسسة خيرية لمنفعة أعمال البر، وساعات يد كبيرة بلا أرقام، ومطاوٍ برؤوس مدببة لمختلف الاستخدامات معلمة بالصليب الأحمر، فضلاً عن مناديل، أقلام، ملاقط، علاقات مفاتيح، أسر له الصبي أن لديه قنينة معبأة بزيت أزهار برية تجلب السعادة، كان من

العسير أن يقتنع ببساطة أنه سيعثر على السعادة الموعـودة داخل ثقب صغير، لكنه اشترى علاقة مفاتيح لإعادة ترتيـب أسراره، وهو يحمل رزمة ثقيلة منها، وحتى لا يبـدد وقتـه الحرج عند فتح باب السياج فـي بغـداد، عليـه أن يـربط أولوياته بهذه الحلقة، وهي متصلة بسلسلة قـصيرة تنتهـي بدمية على شكل امرأة.

عندما تمثلها جيداً، فاجأه رداؤها، هي ليـست غريبـة عنه، إنها تختبئ في حيز ما من الذاكرة، ولكـن أيـن هـذا المكان، بدأ يقلب الصفحات، يلف حول قـصور مهزومـة وأسوار مدن كثيرة، ومدن أخرى عصية على الغزاة، وفـي لحظة تأمل، أشرق تاجها، إنها نسخة زنوبيا بلباس الميدان، لا بأس، أن تكون بهيئتها، وقال في سره إنها تصلح أن تكون تميمة بامتياز.

ربما استوحى الفكرة مـن دورة المونـديال، عنـدما انتشرت (التميمة) مثل ندف الثلج في يوم عاصـف وبـدأت كلما انتقلت من مدينة إلى أخرى تكبر وهي تنحدر إلى السفح باستمرار، وظهرت على أطباق البورسيلين وكؤوس الزجاج وملاعق الفضة، وطبعت على حقائـب الأطفـال وسـتائر النوافذ ووسائد النوم.

هاهو يربطها بسلسلة مفاتيحه، لكنها بهيئة أخرى أقرب إلى نفسه من كرة المونديال.

انطلقت الحافلة بعد منتصف الليل، عبـرت المـرآب مندفعة نحو الطريق، انحسر الضوء عن مقاعـد الجلـوس، وتسرب الطيف الأزرق ليغمر العيون المتطلعة إلى عتمـة

الأشياء، شعر أنه وحيد ولم يعبأ بالشابين الجالسين أمامه، وهما يتطلعان إليه باستمرار فيما يزوغ عنهما غير راغب بالحديث، التصق بالنافذة يرقب الأضواء الراجفة في ذلك الوقت من الليل، أحس أنه طائر فرد جناحيه فوق نهر الشارع متحرراً من الانتظار.

تتابعت المحلات في الصف الممتد معلنة عن الرحيل، هاربة ممعنة إلى الوراء، بدأ القراءة مفتتحاً بيافطة تنوء بطبيب أسنان، وانتهى بالوكيل التاريخي لمدافئ "البورصلان".

أما الأطعمة والملابس والعطور وبائعو بطاقات الخدمة المسبقة، فلم يعد قادراً على متابعتها، كان آخر ما قرأه: إعلان عن مطهر أولاد خط على جدار تحت ضوء شحيح.

عندما تحركت الحافلة وهو يتطلع إلى اللافتات، كانت مضاءة، ولاحظ بعضها معتماً كما هي الأشجار الكثيرة التي يبدو أنها غرست بانتظام على طول الطريق الممتد إلى خارج المدينة، ولكن إلى أي امتداد ستبقى عتمة الأشجار؟ لاشك أنها ستنقطع في مكان ما.

تسلقت الحافلة منعطف الدوار، وخَفَتَ أزيزها، وخفَّت عتمة الأشجار، وحين استدارت طالعته عبارة بلون أحمر (سأخون زوجي) خطت لتستظل تحت فيء الياسمين المعرش فوق الجدار، وما هي إلا لحظة حتى توارت المفاجأة ونأى عنها موغلاً فوق الطريق، وبعد أن تجاوزها ذابت بالعتمة وبقيت خيوط أضواء ذابلة بعيدة عن أفق الدوار.

انشغل باستنتاجاته المتداعية، لكنــه لــم يجــزم بــأي احتمال، قد تكون وراءها امرأة عاشقة أو ذات نزوة عابرة، دونتها بليل هاربة من ضوء النهار.

الأنثى ذات البعد الآخر، لا أحد يعرفها، تخيــل أنهــا قائمة وراء عتمة الزيتون، هناك خبز وفاكهة ونبيــذ أحمــر وبركة ماء، وعندما يستبد بها الجنون تؤرخ نزوتهــا علــى الجدار.

تراجع – ذلك مجرد شك – وأنه لم يقرأ جيداً "الكبرياء والهوى"[1] وأضاف من عندياته أشياء لا وجود لها، وتمنــى لو أمسك بمقود الحافلة وقفل راجعاً ليستعيد دهشته ويقطــع الحيرة التي لازمته جراء تلك العبارة المثيرة للاهتمام.

وردد مع نفسه لِمَ لا أعتبر الأمر مجرد مزحــة، قــد تكون ثقيلة، أراد بها أحدهم أن يمارس لعبة مبتكرة مستطلعاً رأي الشارع لمعرفة مساحة التذبذب بين الخيانــة والخيانــة المنظمة، ومن غير أن يكترث تركها تنزع قميصها كهديــة للمناسبة وتقف خلف عريها مرتدية لحظة جنون.

الاحتمال مساحة بين شاهدين، ولكننا دائماً وإن كنا بلا قصد ننقب تحت السرير، أليس ذلــك إثمــاً؟ تبقــى الكفــة متأرجحة بين اجتهادين، والظن ليس كله إثماً عظيماً.

في رواية طويلة استباح مؤلفهــا مئــات الــصفحات للإمساك بسيدة تخطو نحو الخيانة بحــذر شــديد، حرضــنا كمخبرين، أمدنا بأدوات المهنة دون أن يفصح عن الــذروة

---

(1) قصة للكاتبة الأمريكية (جين أوستن) صراع الاختيار.

الساكنة قبل الاجتياح، وعلى موقع الشبكة التي أقامها سرب ما نحتاجه لشد أحزمة النجاة. وبعد لهاث راقص ختم روايته ولم يمنحنا فرصة لقياس أبعاد الصورة، ولم يمدنا بكلمة السر لنشاهد كيف نزعت ورقة التوت.

ترك الخيانة، ترك النافذة، تطلع إلى داخل الحافلة، هذه الوجوه مختلفة، كل له سحنته، كأنهم يعرفون مسبقاً ماذا ينتظرهم وما سيطلعون عليه، استدار نحو الشابين، اعترف أنه أهملهما لما تقعَّر طويلاً وهو ينبض متابعاً من خلف الزجاج.

الشابان الجالسان قبالته التزما الصمت، كانت بينهما أحاديث خاصة استمرت دون انقطاع تبادلاها بصوت خفيض؛ كلما أراد أحدهما أن يمهد لبداية معه، كان يرده باقتضاب، ولما نزع نفسه من النافذة وجدهما أمامه يحدقان به كأنهما قد اكتشفاه من جديد، لقد أرجأ الحديث في كل مرة، وحاول بحذر حتى لا ينزلق دون قصد، كان يرى أنه سيد الزمن المدخر وبحكم جلوسهم قبالته سيمنحهما وقتاً لتبادل الهم، وما أكثره على القلوب.

بعد أن أهملها.. أفرج قليلاً عن الباب الذي بقي مواربا لوقت طويل، كان دريد بلحيته (الكلونتورية)[1] يتربص مندفعاً برغبة لتعارف يليق بسهرة ليل، نزع غلاف علبة السجائر، أزال غطاءها وسارع يعرض لفائفها البيضاء ليستل واحدة، أمسك عمار الولاعة مقتحماً ببشرته المشربة

(1) نسبة إلى كونتور: وهي طريقة الخطوط الزراعية المعتمدة على سفوح الجبال.

بحمرة رائقة وشعره الحليق كأنه أحد جنود البحرية جاء ليستمتع بالدشداشة بعيداً عن ملوحة البحار، فما كان من وشم المحمود إلا أن شيع الشكر باعتذار، سأله دريد:

- أيضايقك الدخان؟

- لا أبداً، أجاب برصانة، لا أدخن، وأضاف: أنت أيضاً أراك مقلاً ويمكنك الإقلاع؟

هذا صحيح، رد عليه دريد، لكني في السابق كنت من كبار المدخنين.

- كان يسعدني ذلك لو كنت في مجال آخر.

قطع توجسه بابتسامة لا معنى لها، واتسعت مساحة التعارف كما يحصل عادة بين مهاجرين على متن قارب تتجاذبه الريح، بدا دريد راغباً بالإصغاء، ولما حاول وشم المحمود هضم الشكل المثير للفضول، غص قليلاً، لكنه لم يجد حرجاً أن يتدرب فيما بعد على ابتلاع الطعم الخفيف، لكنه رفض كل علامة تعجب مربوطة بخيط ومدلاة بشكل مقلوب.

يبدو أن دريد قد قرأ أفكاره، كيف لا، وهو يجيد ذلك منذ أن كان طالباً في قسم التاريخ، فاعترف على نفسه وقال: إن لحيته رجس من أعمال الشيطان، لكنه تخطى اللعنة عندما لاقت رواجاً وظهرت مستنسخة في أكثر من مكان، وأنه يفكر بشكل جدي وأبدى رغبة حقيقية لتدوينها كابتكار.

في اللحظة التي أراد عمار أن يضيف شيئاً، لم يمهله دريد، وقال باسماً وهو يضمه بذراع واحدة:

- إنه أمير.. وكان لهم شأن.

بدا عمار ممانعاً ورد بامتعاض:

- لقد هجرنا الشأن.. لا تصدق دريد إن قال عني أمير، تصور أنه يصر أحياناً على أني من الملوك.

أدرك وشم المحمود أنه لا يملك ما يمكن الاستدلال به إلا إذا دخل من باب القبيلة وهي سلطة موازية لسلطة الدولة على حد قول "الوردي"[١].

لكنه بدافع الفضول، رغب أن يسأل عن صلته المتأرجحة بين الملوك ولم يتوقع مفاجأة ما، فهي حتى وإن كانت فلا تتعدى رغبة ذلك البائع الذي رفع يافطة على محله وكتب عليها (ملك الطعمية والفول).

الحكمة تقول لا تقترب من الملوك، أو لا تتعش على مائدة ملك لأنه سيكون العشاء الأخير، لكن ما أكثر الذين يتمرغون بتراب السلطان. التحذير لا يشمل بائع الطعمية ولا ملك الفول.

عندما فتش ذاكرته وجد أنه لم يحظ بفرصة للتمعن بملامح ملك عن قرب، إلا أنه كثيراً ما قرأ عن أخبار الملوك.

انصرف عن السؤال عندما برقت سلسلة ذهبية بعنق عمار، وعجب كيف غابت عنه كل ذلك الوقت، واعتبرها فألاً حسناً ورصيداً للعوز. يبدو أنه لم يعان نقصاً بالسيولة طيلة

---

(1) علي الوردي - عالم اجتماع عراقي ١٩١٣-١٩٩٤.

أيامه في الشام، والدليل هذا اللمعان الذي لازال يطرد الوحشة، إلا أن لغز عودته بهذه الحافلة تأخر فك سره حتى الحدود.

وكرد فعل لا إرادي نظر إليه بعطف وقال:

- من أي الملوك عمار؟

تطوع دريد بالإجابة وقال:

- من ملوك الأصل.

ربما يكون من الذين حطوا رحالهم، والمرتحلون لهم وسائلهم، وفي كل منعطف لهم عنوان. لذلك أصر أن يعير السؤال لرداء آخر حين قال:

- يسرني لو تعرفت بالأصل.

توهج تبغ سيجارة دريد وهو يمز نفساً عميقاً، وضيّق بين حاجبيه وقال:

- إنها زلة لسان، هذا الشاب نلقبه أميراً للتدليل ليس إلا، سأوضح أمراً هو ليس سراً، وحتى لو كان... فإني في هذه اللحظة على قناعة تامة أنك لا تستهين بالأسرار، ولكي نستطيع معاً أن نتغلب على النعاس، دعني أعود للبداية.

كان (موسى) وهو ابن عم عمار يعد بحثاً عن التراث الحضاري للبصرة في زمن ازدهارها ومكنه مركزه كأستاذ أن يمط الدراسة لتشمل كل الأسماء، وبعد أن قطع شوطاً طيباً توقف فجأة، وعلى حد علمي، وكنت وقتها من أحد طلابه، أنه تعثر في مفترق الطريق لما حظي بمخطوطة تمكنه من إعادة ترتيب ارتفاع الرايات لأكثر من قبيلة بتسلسل جديد. واستناداً على ما توصل إليه موسى فقد صار

يأمل أن يمنح عشيرته مرتبة أو اسماً آخر غير محدد كثيراً ما كان يشغله، إلا أن المناخ السائد لم يكن متناغماً أو ملائماً للاكتشاف.

وبعد الاحتلال - استطرد دريد - اعتقد موسى أن الفرصة متاحة ليعود لمشروعه القديم، إلا أن الإعاقة هذه المرة كانت بسبب الوباء الذي اجتاح شوارع العشار.

وحين أعاد قراءة المشهد وجد أن الانتساب الجديد، إن لم يكن دماراً، سيورثهم بعض الدمار.

- أفهم من ذلك أنه كان تحت حمل ثقيل.

- هذا صحيح، على قدر معرفتي أنه علق بعقدة كأداء.

فالمصادر التي بين يديه كثيرة وتمكنه من كتابة الأسماء، إلا أنه ولسبب أجهله عاد إلى الأسطورة ورحل مع السندباد، وربما تاه مع جلجامش بين غابات النخيل، لكن الأساطير شوهت الكثير من الحقائق، ولك أن تتصور حجم التشويه عندما لا توجد وسائل اتصال أو صحف أو تسجيلات، هناك أيضاً الهجرات الوافدة التي كانت تعرف في الماضي - بزمن القحط والدمار - من منا لم يسمع "بخراب البصرة" الذي تضرب به الأمثال، يقول الحكائون أنه قد حصل بسبب الجرذان التي حملها البحر ورماها على المدينة وقضمت أعمدتها وتداعت على بعضها وحصل الخراب. وفي قول آخر أنه حصل بسبب الحريق الذي طال شناشيلها التي تحتل واجهاتها الخشبية وتضاء بالزيت، وما زال جزء منها في محلة الباشا إلى اليوم.

قاطعه وشم قائلاً:

- لقد شاهدت هذه الشناشيل التي تتحدث عنها وهي موجودة في ساحة "أم البروم" وقرأت عن شرفاتها الخشبية التي تتجلى حقيقتها في آخر الليل، لكن لا اصدق أنها سبب الحريق..

رد دريد: إن البصرة قد تعرضت لحوادث عديدة وأصابها أكثر من خراب، لكنها كانت دائماً مثل طائر "العنقاء" تنهض من تحت الرماد، ثم صمت حتى كأنه لم يعد لديه ما يضاف، لكنه أضاف: هناك تفسير آخر سأذكره لتكتمل الصورة، كان موسى مهتماً به، وسار نحوه شأواً على اعتبار أنهم من القرامطة، وهو تخريج مندثر على أنهم من هناك، مستنداً إلى قرب البصرة من الأحساء والتماثل القائم بينهما. والتسمية مردها إلى كلمة قرمط الفارسية، إنها تعني اللون أو البشرة الحمراء، وفي قول آخر تعني القصير، وهذا اختلاف لم يتفق عليه المؤرخون، ولم يذكر لنا (ابن بطوطة) عندما زار البصرة سنة ٧٢٨هـ شيئاً، ولم يطنب في الأقوام، لقد سرقته الزبير المستلقية على حافة الصحراء واستظل بفيء واحتها ليستريح من عناء السفر.

كان موسى يتتبع الاسم مستعيناً بابن خلدون الذي كان قدره أن يعيش في عالم عربي محاصر بالتتر والمغول من ناحية وبالصليبيين من ناحية ثانية وقاوم ولم يستسلم للمرض الذي بدأ يأكل جسم الأمة.

وركن في وقت من الأوقات إلى أن رحلهم حط في بلاد المغرب ورسا على سواحل تلك البلاد وقد عُرفوا باسم

(بلحمير) طبقاً للهجة المحلية وتعني بني الأحمر. ولسبب سلطوي - كما يقول موسى - اتجه أجداد عمار إلى البصرة، ولا ندري كيف جاؤوا، ربما حملتهم مياه الخليج أو أشرعة الرياح أو جاؤوا عبر الصحراء، لا أحد يعلم، لم يكن هناك ما عرف فيما بعد بقناة السويس، الواقع يقول أنها هجرة معاكسة لتغريبة بني هلال، وأردف مستدركاً علم ذلك في باطن الكتاب الذي لازال قيد التنقيح.

هنا تدخل عمار ليضيف:

- من الأفضل أن نسدل ستاراً على كل ما قاله دريد وعلى كل ما أورده من تفاصيل، الحقيقة الثابتة نحن على الشط وتحت فيء كل نخلة لنا حضور، وإذا كان بعض من يجاورنا يعتقد أننا من المحمرة أو من القرامطة أو من بقايا الحملة الصليبية، فأنا أحيله إلى الأستاذ الذي أنفق دهراً ولازال منقباً بين ثنايا التاريخ.

علق وشم المحمود:

- الموضوع بسيط ولا يخرج عن كونه استبدال اسم باسم آخر، وحسناً فعل موسى عندما تخلى عن فكرة الأسماء، واعتقد أن ضميره أثقله ولا يريد أن يبحث لكم عن أطلال لتبكوا عليها، ويبدو أنه أشفق عليكم من أزر التاريخ.

حانت منه التفاتة إلى الفتاة وقد أسبلت جفونها وبان طيف لونها فاتناً وهو يتدرج كالضوء المنسرح نحو وجنتيها وخاطبها سراً.. مع أي حملة جئت... ومن أي قبيلة أنت؟ لكن من أين يتسلل إلى شرفتها، ربما ستتيح له سلماً إذا ما

أفاقت عند نقطة التفتيش. ولما أحس أنه متطفل على خصوصيتها، انسحب بصمت ليكسي ضميره بانتظار آخر طويل.

لم يخطر بباله أن يستبدل هويته أو اسم قبيلته، إلا أن بعضهم زورها بعد الاحتلال كما تشير المحاضر الجديدة للبيانات التابعة لدوائر الأحوال المدنية في أكثر من مكان.

وأصر في داخله أن الاستبدال كالولادة الموحشة وكالإقامة خارج ذاكرة الزمان.

لقد عاش في البصرة زمناً وتصفحها بين دفتي أم البروم وفي كتاب آخر غير كتاب موسى الذي لم ير النور.

كان بعضهم يتبعون الكلأ والماء في صحراء واسعة، لا يختلفون عن غيرهم بالترحال عدا ما هو شائع من مهارة في الطب ولو فتشت جعبهم لوجدتهم قادمين من المنحدرات والقلاع.

لم تكن لهم ميمنة أو ميسرة يوم دخلوا من باب عين الجمل أو من باب الزبير، وقد يكون الأصل بحاراً أضل الطريق فورثهم تلك العيون. هذه الملامح باقية وإن اختفى بعضها بين الدروب، وحين أمعن النظر بوجه الفتى لم يجد ما يميزه غير دعوة لرفقة مؤنسة مسبقة لأيام قد تضاف إلى "ذهب مع الريح"(١) أو تنتهي عند نقاط التفتيش.

أجال النظر بين ركاب الحافلة ثم عاد يركز على عمار ورقبته الذهبية، تمنى لو يستطيع أن يسرد له من الغلاف إلى

---

(1) فلم أمريكي عن الحرب الأهلية مأخوذ عن رواية بذات العنوان.

الغلاف حكايته عن طريق الإيحاء، دون أن يكون مضطراً ليحرجه بحرف واحد من الكلام.

كان شعاع النور المتسرب خلف عمار يضيف ظلاً رقيقاً لملامحه المطمئنة وهو في ذلك المقعد المقابل للضوء الشحيح، وسره هذا البصراوي الذي أعاد له الذكرى وهو يجلس أمامه ليستبدل ليلة حبلى بأخرى من ليالي النخيل حين توسد الهوى ولانت له أذرع العشار وتربع فوق أريكة معدة للذكريات.

المهيلات محملة بالتمور تنحدر في صمت يؤنبك إذا تجاوزت وقاره المهيب كأنه طقس من طقوس العبادة المشبع بطراوة السوس.

الثَغور لا تبحر نحن نبحر إليها ونودعها كسر داخل القلوب، ونطويها كالسحاب.

وقتها كان مركباً احتفالياً كالحب الأول متفرداً كأطراف النخيل. ما كاد الليل يطريه حتى تلمس سعف الذاكرة والصيف مسترخياً على صفحة الماء منحدراً طافياً يناغم الموج، أحس بضآلة قاربه لما قارنه بأبراج قائمة هناك، امتدت ذراع الخليج أمامه وتراءت (التتومة) كفرحة عيد، انكسر المد المتأرجح وأعاده بإصرار المتعجل مستعرضاً الدهشة، متوكأ هامات النخيل والبيوت متربعة تلامس ارتداد الشاطئ والنسوة ينحدرن كالطلاسم في تتابع عجيب، كل تغسل أوانيها وأشياءها الأخرى، كان ذلك منذ زمن بعيد، لم يكن يعرف حينها أن وسط هذا النهر خط اسمه (تالوك)[1].

---

(1) خط وهمي يقسم شط العرب إلى قسمين.

كان يمكن له فك الاشتباك، لولا خياله الذي سرح إلى سلالة غابرة، لابد وأن يكون الفتى قد انحدر منها، وفقدت سلطانها بتقلبات الزمان، ولا عجب أن خمن منذ البداية أن له شيئاً من ذاكرة القصور، ولكنه ظل زاهداً بالوقوف على الأطلال، ربما بسبب موسى الذي لم يذكر له اسماً يصلح للبكاء. لذلك أحس باللاجدوى وإن ارتد خمسة قرون إلى الوراء، يوم كانت لهم ناقة ومربط مع من أناخوا بين الشعاب.

داخلو المدن كلهم تاهوا ولم تعد لهم عصا يهشون بها على بعير، بعد أن استأنسوا مستسلمين لأيامها، يتنفسون الصبح على وقع الخطى لأداء الصلاة.

لقد أظهرت دراسة تتعلق بالهجرة والمناخ أن بيوت المدن العربية التصقت ببعضها ليس اتقاءً للحر كما كان شائعاً، إنما لسبب آخر يتعلق بالأمن الوقائي، وقد اتخذ الباحث من بغداد مثالاً في العمق، حيث المساكن تلتصق وتتداخل مع بعضها مما يضفي طابع التلاحم أمام الخطر، وهي شديدة الانسجام وإذا كانت منحرفة فهي جزئياً بـ (٢٠ درجة) نحو الغرب لدواعي المناخ.

توقف أمام هذه الانحرافات الموجبة واعتبرها ليست بذات شأن حتى وإن لم تكن لدواعي المناخ، إذا ما قورنت بانحرافات أخرى حصلت في بيوتات عريقة استدارت إلى الخلف بعد الاحتلال.

وجد دريد نفسه بعد أن أفشى هذه الأسرار كما لو كان في صحراء يلملم بقايا قطيع أضل الطريق، وينفخ فيما ظنه نايأ بصوت لا يشبه الناي، وهو يكيل المديح، الوصف أربك

عمار، وارتسم ذلك على ملامحه، أراد أن يصرح بكرهه لهذه الغواية التي لم تغويه، لكنه تماسك وهو يداري رفضه بابتسامة ذات شجون. أراد أن يقول شيئاً، تحرك ممسكاً بحيرته، باغته وشم المحمود موجهاً كلامه إلى دريد:

- هل أنت وإياهم من قبيلة واحدة؟

أجاب دريد بالنفي وقال:

- أنا من قبيلة أخرى، وما بيننا صداقة اعتنيت بلياليها فأزهرت في زوايا الشام.

وجم عمار، وخاف أن يزل لسانه ويبوح بما هو ليس مباحاً.

تجاهله وشم المحمود مؤجلاً صيغة جاهزة للرد عليه حين قال:

- إنه منهم، وصمت برهة.

رد دريد مشيراً إلى رفيقه:

- إنه أحدهم ولكن ليس ملكاً كما ترى، إنه مسافر بسيط وطيب وودود، ويتصرف كما لو كان أميراً، وهذه هي الخصال التي أسعدتني كثيراً.

رنا وشم المحمود إلى تلك الشابة، ثم تحول إلى الظلمة الساكنة خلف الزجاج مستأنساً بالمصابيح المتقابلة بالاتجاه، أنها طريق واحدة بلا مفاجآت لولا ذاكرة الرصيف.

بعد أن ساد الصمت بينهما، تعثر دريد حين حاول التسلل إليه، وبعيداً عن الحلبة اعتبر وشم المحمود أي تأسيس يحتاج إلى مقارنة على ضوء المتغيرات لعلم

الاجتماع حسب نظرية ابن خلدون. ومهما اختلفت المفـــاهيم فإن البيت الذي يقول:

فغض الطرف إنك من نميرٍ   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

لم يعد يقال، وعالم اليوم أكثر اتساعاً مما نتصور وأن (الآل) و(البني) الذي ورد ذكرهم أن ترعرعوا هنا أو جاؤوا من بعيد قد تبدلت طباعهم ورقت مـــشاعرهم لقـــربهم مـــن الخضرة والماء.

- نظر إلى عمار مخاطباً صمته وقال في سره كم هو وديع.

كانت الحافلة توغل في السير على الشريط اليتيم الملفع بالسواد وكأنها في سباق مع الحزن مسرعة نحو المجهول.

وبين أجفان النعاس أعاد النظـــر إلـــى صـــورة الفتـــى المرتعشة أمامه بين الوهج والذبول على جمرة التبـــغ وهـــو يوقدها بارتداد، ومع كل نفس مسحوب يـــزاح طـــرفٌ عـــن ملامحه الصافية المستسلمة ذلك اللون المتسرب من حافة بقيت تغالب عتمة المكان، بدا راغباً، وأضاف رغبة أخرى، عنـــدما سرح نظره إلى تلك التي لازالت مستسلمة لطيف الرقاد.

(إنه منهم)، هكذا يقول دريد، لـــيكن، إن كـــان مـــن القرامطة، عليه أن يحتفظ بجواد مهيأ بعنايـــة أمـــام قبـــر مؤسس دولتهم (أبي سعيد) ليستخدمه حـــين عودتـــه إلـــى الحياة كما يعتقدون، أما إذا كان يريد أن يكون مـــن بنـــي الأحمر، فعليه أن يعيد حساب المسافة جيداً فهـــي ليـــست بخمسين فرسخاً كما هي بين البصرة والأحساء، ولكن هل

استطاع أبو عبد الله فعلاً أن يهجر غرناطة ويؤسس ملكاً في العشار؟. أعاد القول وهو يحشره في ثقب صغير، لم يقرأ في كل كتب التاريخ أنه علق صورته على أسوار أخرى غير أسوار مدينته، التي بقي سجينها في ذاكرة قصورها المعروضة للفرجة في كل العصور، وصوت أمه لازال في أذنه يردد:

أبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

كان يعلم حق العلم، أن كل الدموع لا تستطيع أن تعيد له صدى الماء المنسكب على الفضة الساكنة في قاع نافورة الحمراء.

مر الزمن وصوته لا زال كنوافير المياه، هل كان فارساً عربياً مهزوماً أو عاشقاً هجرته النساء؟.

***

لم يتخل وشم المحمود عن الرغبة بالتقاط إغفاءة بين المسافات لاجتياز الليل، بعد خدر لازمه بفعل رتابة اهتزاز المقعد المتناغم مع جريان الدولاب، غط بإغفاءة ساكنة، لم يلبث طويلاً حتى أفاق منزعجاً عندما أحس أن الحافلة قد اصطدمت بشيء ثقيل، رأى في يقظته بناية مضاءة، وأعزى فزعه للخروج المباغت عندما انحرفت عجلاتها عن الطريق لتستقر جنب حافلة أخرى في نفس المكان.

كانت اليافطة تعلن عن استراحة طريق، وحين هبط ظهر أنها مزروعة لوحدها في العراء تحت سماء مكشوفة وسط امتداد واسع من الأرض الجرداء تحتلها في تلك

الساعة من البكرة الوانية حافلات متناثرة يرتد على زجاجها شعاع الطريق.

وكعدوى متفشية هبط أغلبهم واجتازوا الباب المفضي إلى المكان، اهتدى إلى كوة مدلاة فوقها قطعة (كارتون) تشير إلى – هنا يباع الشاي– احتشد حولها عدد غير قليل، أعاق الواقفون مرونة تداول الطلبات، وكان السكر قد وضع جانباً في وعاء كبير لتأخذ حاجتك فتسرب ذارية إلى وجه البلاط وتحول إلى دبق أسود تحسه وأنت تنقل حذاءك في المكان.

توقف عند مائدة طعام طويلة صفت كراسيها باستقامة واحدة وشاهد المساعد مستطعماً بشهية وهو يرشف صحن حساء، تأمله وهو يتناول لحمة مستخدماً يديه نابذاً الشوكة والسكين.

اشتهى الطعام، ولكن كيف يحصل على ما يماثله من عدد النجوم، تريث برهة ثم تخلى عن رغبته لما استعاد كاريكاتيراً عن أطعمة الطريق، تذكر شكله، كان لعامل شواء، بقي عالقاً بذهنه، رسم واقفاً خلف الموقد مروحاً بخوصة وإلى جانبه رجل شمر عن ساعديه ممسكاً بلحمة يمطها منكفئاً إلى الوراء، ومسافر آخر عليه دالة التعليم، يلج مستفسراً:

– يرحم أباك هذا لحم ايش؟ يرد عليه العامل بفم مفتوح:

– "لحم ديناصور".

إنها من صور الذاكرة عادت من الماضي كما تعود زهرة الثلج من بعد سنين. لم يكن بحاجة إلى وسائل إيضاح فهو طالما تحاشى قديد الطريق.

لذلك فضّل قدحاً من الشاي مع قطعة بسكويت اختارها من بين أنواع عديدة جذبه غلافها اللماع.

تشير الكتابة المدونة على الغلاف إنها معدة من زبدة الكاكاو والدقيق، أزاح الكرسي جانباً عندما نهض ليمضي خارجاً، رفع قدح الشاي متطلعاً إلى الأمام، وقبل أن يخطو تعثرت قدماه حين لمح طولها يتخطى حاجز الباب كغصن مورق متجهة إليه، رحب بها فاستقبلته بابتسامة يمكن تعتيقها في الذاكرة لسنين، قد يطغي سحرها على أشياء أخرى لذيذة معتقة منذ زمن بعيد.

قال في رغبة غير قابلة للبوح سأتوجها على ضفتي ولن أعبر بها لضفة أخرى فهي لازالت طرية وأخشى أن تتعرى هناك.

وتعجب كيف استطاعت رغم برعمها الصغير أن تنعم بإغفاءة طويلة كل ذلك الوقت؟.

أحلامنا وتواريخنا وأفكارنا وأعمارنا متناقضة، مبعثرة، جمعتنا الحافلة، كيف التقينا!!؟

ربما لنتقاسم الفاجعة أو نتقاسم الجنون، وتساءل وهو يختبئ تحت شفتها السفلى.. (أي ريح حملتك إلى هذا المكان؟) كان سعيداً حين قبلت الشاي وشجعها لتتخطى حزنها إلى مكان قريب، انفرجت شفتاها دون حذر، تذوقت قطعة البسكويت، وقالت:

إن مكوناتها أطياب وزبدة ودقيق عالي الجودة، وفطن أنها تقرأ ما هو مدون على ظهر الغلاف، أفتر شفتيه وهو يشاركها عدم القناعة بمعايير الجودة التي تكتب في كل مكان.

نظر إليها نظرة مفعمة.. نظرته الأثيرة حين يتأمل النساء الجميلات، سألته:

- أين تسكن؟

- أسكن في الذاكرة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد ذاكرة الذين ألتقي بهم ولا ينسوني بسهولة.

- أنت تمزح.

- أنا دائماً في حالة جد.

- لا يبدو عليك.

- ماذا يبدو إذاً؟

- إنك تحلم.

- لا فرق، أنا أحلم بأشياء جادة.

ساد بينهما الصمت، يبدو أنها وقفت أمام منعطف جاء مصادفة ولم تكن راغبة بالولوج إليه، تراجعت وهي تسوي شعرها المنسدل بليونة فلم يسعه الجزم إن كان ذا صبغة أو مدهون، كانت خصلة مدلاة تحجب نصف عينها فتمرر أناملها لتزيحها جانباً، فلا تلبث طويلاً حتى تعود، وكأنها تتسلى بلعبة تعودت تكرارها، لاحظ أيضاً أنها تزيح عن

عينها الأخرى ذؤابة صغيرة من الخصلة ذاتها، لذا بدأ يشك أنها تتعمد ذلك، وخيل إليه أنها تتعمد أشياء أخرى، فعند قراءتها لمكونات العلبة ضغطت على نقاوة الدقيق وقد اعترته رغبة عندما قارن جسدها ببياض الطحين.

جلست أمامه، واحتفظ بعينيه بمستوى عينيها المجهدتين وقلبه ينبض بشيء من الخوف، عرف في تلك اللحظة ما تشعر به الفتاة، سألها عن الجنون المختبئ تحت غلالة الحزن، اعتدلت في جلستها وهي تجول بنظراتها بين الحاضرين، وتلكأت في مكان ما، خطف نظرة، فوجد عمار... (اللعنة عليك)، هكذا قال... وأضاف لعنة أخرى إلى دريد الذي أقبل يحمل طبقاً فيه خبز وشواء وأقداح شاي.

***

ما زال وشم المحمود يتذكر زوغان قبضته في الفراغ، عندما أمسك برقبة عمار، كانت مشاعره مزيجاً من الخوف واللامبالاة، والدافع الذي أجبره لتضييق الخناق كان مختبئاً وراء رغبة غامضة، وفي ظل الطيف الذي يستحق التدوين يقول..

تراخت قبضتي لما تراءى لي عمار بصورة أبي، وفرض على هذا الاعتقاد عندما بدأ يرتدي صوته، ويأخذ ملامحه شيئاً فشيئاً، ولما أحس بحيرتي طلب مني ألا أخاف، وكرغبة منه بالتعويض عن الشعور بالافتقاد، حاول الولوج إلى عقلي الباطني، لعله يجد متنفساً ولو بشكل نزوة أو أمنية بالجنون، وعندما أحبط تخلى عن رغبته، وأعزى ذلك إلى قراءاتي السيئة لتنظير ملهم يؤيد الحاجة لرمز عظيم يقف

بين النهرين، ولأسباب أحادية لم يتطوع أحدٌ لرسم ملامحه حتى الآن.

ولحل المعضلة بادر بتأليف كتاب، ومد يده إلى داخل كيس أحمر كان تحت إبطه، واستل نسخة واحدة وقال:

– هذا هو الكتاب.

كان كتاباً معتبراً، بغلاف متين، يحمل عنوان (كيف تقضي على أمريكا في سبعة أيام) على غرار كيف تتعلم الإنكليزية بسبعة أيام.

أدهشني العنوان لأن الفترة قصيرة، وبدأت أفكر بالوسائل التي يمكن استخدامها في نطاق هذه الحملة المحددة بهذا الوقت القصير.

فكرت بعجلة (هـ. ج. ويلز)، أو ما يعرف بعجلة الزمن، وتمنيت لو أركب هذه العجلة لأعود خمسمائة عام إلى الوراء، وقد أضيف لها أعواماً أخرى ولكن بحذر حتى تكون عودتي قبل سقوط غرناطة لعلي أحظى بأبي عبد الله الصغير، عندئذ سيكون في وسعه أن يمدني بالعون ويسرج لي الخيل لنقتفي معاً أثر الريح، لكني كنت أحس بين فينة وأخرى كما لو كنت في حالة حلم بفعل رتابة شيء يلكزني بخاصرتي كل حين.

لم أكن مقتنعاً بخياله، وتمنيت لو عاد كما كان عند عتبة الماضي غير المرسوم، يومها كان بوسعه أن يخطب لي تلك التي التصقت بها كهذه الحالمة الجالسة لوحدها في مقعد الانتظار، لكن من يعوض الماضي، كانت رغبة

متلكئة، شعرت بالخجل لحظتها ولم أتمكن من مخاطبته، أمسكت بالقلم وكتبت له خطاباً، فرمقني بنظرة ذات مغزى، وغلق أمامي الطريق، لم يترك لي مهرباً أو اعتذاراً، لقد قرأ نزوتي، فسبقني القول وقال:

- هذه أمك.

وكنت أشد ما أخشى أن تضمني إلى صدرها فأقع في المحذور، لذلك أنكرت أن تكون لي أم في زمن الاحتلال.

***

أفاق وشم المحمود، نظر إلى عمار سابراً تفاصيله لعله يكتشف سر تجواله في وعيه دون إذن، تراجع - هو دائماً يتعجل الأمور، فالرؤيا تخصه وهي ناتج نشاطه الذهني ومدخل بوابته السرية، وعندما حاول أن يجد تفسيراً مقبولاً لهذه الرؤيا، بعيداً عن ذلك التفسير الذي يعتبر عضة الكلب الأبيض من علامات الغنى، استنتج أنها تعويض عن حالة فقدان شيء مهم -كالعدالة مثلاً- ولما حدج بعمار شعر بالاغتراب حين تخيله ممسكاً بالميزان وقد تخلى عن عصبة العدالة التقليدية واستعاض عنها بنظارة سوداء.

أطفأ السائق بقية أضواء خافتة، إن العتمة في هذا المكان تأتي كسلم المريدين على درجات وعندما تكتمل حلقاتها تعوض بتسريبات شحيحة تستمد بصيصها من أضواء العربات المعاكسة بالاتجاه.

كان التلفاز يعرض فلماً يفيض بين لقطة وأخرى ببعض وميض.

اندفعت الحافلة بهيكلها المعدني تقهر الإسفلت وهي تتلمس الفجر، سرقه عطر خفيف، عندما نظر إليها وجدها كما هي تعلن عن حضورها كصورة داخل إطار، أحس بالحزن والسعادة معاً وأمسك منها بنظرة عجلى وأباح سر عينيها بشيء.

حين استعاد جلسته القصيرة معها وجدها رغم بكائها تكره الدموع، كانت تجربة متقدمة لكنها لم تضف لخبرته شيئاً عدا اكتشاف قد لا يكون جديداً، إنه لازال أسير الماضي ولم يتخلص بعد من عقدة الحزن الذي يعتريه حين يتأمل النساء.

ترك قلبه مفتوحاً لرياح الصدفة، كان يخشى أن يفترق ولا تترك له غير غبار السفر.

الوقت يتقدم مع تقدم الحافلة نحو الحدود، أغلق المساعد جهاز المرناة الذي كان محشواً بفلم مصري قديم. لم ينته (بنصف الصنعة)(١) كانت مفارقة لم يتوقعها أحد من متابعي المقاعد الأمامية ونهاية خارجة عن سياق النهايات السعيدة لهذه الأفلام.

زحفت البرودة، تدرجت هبوطاً داخل الحافلة وهي تسابق الصباح، لوح أحدهم بإشارة من يده، تقدم المساعد وهو بين اليقظة والنوم، وأغلق فم الجهاز، كان عليه أن ينسجم مع صوت العجلات اللاهثة في العراء ومع أشياء مؤجلة لا يريد أن يبوح بها تشغل مساحة من قلبه أوسع من

---

(1) نصف الصنعة – هز الوسط – النهاية التقليدية للأفلام العربية القديمة.

هذا المكان الذي بدأت بواكيره تنهض عند حافة السماء، فكر بنقطة التفتيش القائمة عند منعطف الدار، وتفحص المقعد الجالس عليه كأنه الوسيلة الوحيدة التي ستنقله إلى هناك. (عندما تفقد الطريق إلى الوطن وحدها الحدود ستدلك على العنوان)، لذلك لم يعبأ بالصحراء الواسعة، حتى وإن داهمه الوطن وهو في الطريق إليه، بوسعه أن يطلق العنان إلى آخر مدى ويلثم السيوف قبل احتدام الغربة، وتمنى لو يموت في معركة خاسرة من أجل نخلة الدار.

يا لخيبة الزمن الرديء، ما أكثرهم مروا من هنا متعجلين، مروا من هنا هرباً من قدر مؤجل، في كل مرة تنفسوا غبار المسافات، هاهو الطريق عند نهاية الأفق كنوبة صرع في صباحات العتمة.

شنق أحزانه ثانية وقال في سر مكبوت: كم كان يلزمني من التراب حتى أواري تلك الأجساد التي تركت سهواً على ذاكرة الطريق، وكم يلزمني من اللعنة حتى أختار ما يناسبني من لهفة ريثما تناولني شفتيها الباردتين؟.

بدأ يروض رغبته للنفاذ عبر المكان الذي لا اسم له مهما اجتهدوا بالتسميات.

لا ضوابط عند بوابة الشريان، يمكن أن تمارس الحماقة على أمل أن تتوصل إلى الحكمة، ويمكن أن تمرق، ويمكن أن تعود أدراجك من حيث أتيت، وربما تربط بسلسلة ككبش محتمل، أو تزرف ليعرفوا كنهك اللعين، أو ينعم عليك بكثير من المودة على اعتبار أنك من الملوك.

عبر الكوة تعبر كل الأوراق وخارجها تقف كل الأسماء، لم يكن بمقدوره أن يبتسم وإذا وسوس له فهو داخل دائرة الشك لأنه لم يعقد صلحاً مع الشيطان.

لن يتكلم عن الطقس كمقدمة للحديث، فالحديث أصبح بلا مقدمات، لم يعد في الحقائب أسرار، واعترف عمار أنه نقد إلى مساعد السائق ليرتب له موعداً مع تلك التي تجلس في آخر الصف، وهي مهنة جديدة من غير هوى، فرصة عمل خلقتها الظروف، هي رفقة مؤنثة وجواز عبور لمن كان بعمر يثير الارتياب وزواج سفري على ذمة من...؟ لا يريد أن يبوح، إنه يخاف الذنوب.

أيقن دريد أن أحلامه ستنتهي عند أول نافذة، وعندما يظفر بالختم الدائري يقفل عائداً كعلبة صفيح، ويترك الفتى غير المتوج ليواصل رحلته إلى المجهول.

ما أشبه الليل بالبارحة وإن اختلفت منازل العبور، ومهما امتد الزمن لن ينسى باقات الورود وكيف مارس الحماقة بين شطري المدينة، يتسكع في الغربية ويستحم في الشرقية لأسباب تتعلق بانهيار (المارك) كان الزمن مائلاً قابلاً للطي دون انكسار، حين يضع الختم الدائري على جواز سفره عند أول ليل ويبسمل ماداً قدمه اليمنى متخطياً أسنان الدب.

قرر أن يتوقف أمام سريالية الرغبة خلف جدار بوابة الركام، كانت لعبة رديئة طافحة باللعنة، زهق ولم يعد قادراً على بلع حبة الدواء دون غبقة من نبيذ، فترك المدينة مجروحاً بقطعة من الكريستال.

انتشله دريد حين قال:

إنه يعيش خلف الحدود ويختم ليعـود بثلاثـة أشـهر للإقامة من جديد، وعند مقارنة اللعبة بين شطري (بـرلين) قبل رفع الجدار وبين حالة دريد، عادت له ذكـرى اليـوم الحزين عندما ترك السيدة الشمعية منزوعة الأمـل كلوحـة حقيقية في معرض معد للهفة وهي تلامس شفتيه في قاعـة الانتظار، تلعثم في حيرة أمام صمت عينيها، وفـي لحظـة مسروقة من الزمن الذي لن يعود، خلعت صليبها الفـضي، ورمته في باطن كفه، كان تصرفاً بلا رحمة، كإعلان حرب، هل كانت تريد أن تدقه بالمسامير وتصلبه عليه؟! وتتركـه عارياً تحت السماء، وبتلقائية لا يدري كيف جاءت، أعـاده يطوق عنقها، متدلياً بين انضمامة النهدين، لم يندم على تلك الحماقة ولو للحظة واحدة بعد كل هذه الخيبات.

***

عندما هبط سلم الحافلة وتخطى البوابة الكهربائية علقت عيناه بعربات (الهمر) وجند (المارينز) فانتحى بخطواته إلى كابينات خشبية معدة للحراسة، كانت نوافذها مسدلة، وفـي الجهة المقابلة رأى مكمناً مغطى بشبكة خداع ولمح بنـادق منصوبة الزناد فخطى مبتعداً عن المكان وهو يتأمل سـحابة عابرة حجبت الضوء وخيمت على طاق البوابة التي كانـت بوابة للنصر ذات يوم، أشاح عنها مبتعداً ومتجاهلاً أشـياء أخرى تثير الحزن وتجعله مشرفاً على البكاء.

تذكر بلبله المغرد الذي تركه في لحظة ضـعف، مـا أكثر الضعف الذي تمنى أن يسحقه كما تسحق الحشرات في

الليل، افترق عنه عند حافة الرغبة حذراً صامتاً فوق أشجار حيادية الحزن لا أغصان لها ولا تحتك بها الريح، وفي صوته رنة أسى وفي تغريده ذلك اللون الحزين.

انتابه إحساس غامض من البنادق المحشوة ومن الواقفين عند البوابة الموجهين فوهاتهم إلى الأرض، لقد تداعى النصر هنا كما تداعت الشواهد في كل مكان وأسف لـ(حسن فايق)[1] الذي طارت حماماته السبع، وخرج يحبو من تحت الإسمنت يحمل بين كفيه قمحاً لعله يغريها بالعودة، ولكن كيف تعود وآلاف الجنود يحملون على أكتافهم عند الحدود بنادقاً ويجوبون المكان، انتابه إحساس بالنصر، توقع أن أحدهم سيرفع بندقيته ويطلق عليه النار من مكمنه خلف لوحة الـ(Border)، رفض الهروب وبقي ينتظر الزناد وإصبعه يضغط عليه، متفائلاً برصاصة توقظ ذاكرته في هذه المساحة المخصصة لفعاليات رفع رغبة القتل عند الجنود كما أكد خبير الخدمة السرية المشرف على التدريبات حين صرح:

– إن مفتاح الفعالية هو تحطيم النفور الطبيعي عند الإنسان بعملية أسماها (فك الارتباط) فإذا زال هذا النفور لن يعود أبداً، ونصح بما يجب أن نتعلمه لتحرير مشاعرنا عن طريق إدمان منظر لملمة الأشلاء.

هذا المجند عندما يرفع بندقيته سيطلق النار، لا لكونه قد شارك حديثاً بالتدريبات، إنما لسبب آخر، هو أن الذين

---

(1) فنان عراقي من جماعة الرواد – صاحب الجدارية المشهورة التي مزقها العدوان بقذيفة.

عبروا من تحت القوس المهزوم مسالمون وشكلهم لا يوحي بالإرهاب، ومستعدون للإصغاء وتنفيذ تعليمات البوابة الكهربائية بكل حرص واهتمام، وطالما هم بهذه المطاوعة والاستجابة لكل ما هو مطلوب ولم يقوموا بأي أعمال عدائية لحد الآن فذلك يعني أنهم ينوون القيام بها مستقبلاً، وحتى لا يمنحهم فرصة القيام بها مستقبلاً سيطلق النار.

انتظار الموت أصعب من الموت، ويمتد لطيف واسع يقع خارج دائرة الأيام المتعاقبة التي تعود لبدايتها مع كل يوم جديد، وإذا انقطع الرجاء وبدأ العد التنازلي لصباح يوم ما بعده صباح، حتى عند حافة هذا اليأس المطبق، لا نعدم خيطاً موصولاً باللاوعي، يبقى نابضاً ليمدنا بالأمل حتى آخر نسمة من الحياة.

بدأ يتحرى عنها وعن خيوطها الموصولة وشك أن تكون حالتها مشابهة لحالة الموت، وحين توقف عند آخر مرقاة كانت هناك، استعادها عند الممر الطويل، لحظتها ظن أنها متمهلة، تحرضه على اللحاق، لكنها كانت تعرض أوراقها الصحية وبيان نقص المناعة للتدقيق أمام مجندة سوداء وضاعت وسط الذين سمح لهم بالعبور من تحت بوابة تعتليها يافطة ترحب بالقادمين.

مد نظره إلى نهاية المقاعد متطلعاً بالوجوه، جال بعينيه القلقتين متنقلاً بين مجلسها الخالي ودهشة العيون، يبحث عنها وهو يفتش ثانية عن نسيج تلك الخيوط.

بقي مكانها يعلن الحداد، لم يلبث طويلاً حتى استدار فاستقرت صورة عمار أمامه وهو يحتل مقعده القريب،

تعثرت شفتاه بابتسامة وشطب نظرة استفهام مسبقة النية، وخطا نحو مقعده وارتمى بإهمال وهو يحصي أسئلة كثيرة لكنه لم يكن مستعداً للإجابة عن أي سؤال.

تطلع بالوجوه القلقة، أراد أن يسأل عنها، عن مواعيدها، عن أجندتها القادمة، وعن كل من كان له على بوابة النصر عنوان، لكنه عدل عندما أشاح عمار عنه والتصق بالنافذة متطلعاً نحو الطريق، لا ريب أنه من ضحاياها هو الآخر وأنه يشاركه الانتظار.

تحركت الحافلة مبتعدة عن الطاق، ووقفت في المساحة القريبة لتبديد الوقت، فكان على حافة التوازن يرقب قدومها لتلغي حالة السقوط.

قال المساعد:

نحن هنا إلى أن يلتحق بنا المتخلفون.

ترك عمار النافذة ندت، عنه آهة وهو يتطلع بالوجوه كأنه يبحث عن آخرين يشاركونه التصفيق، ابتسم بإرباك، استدار وهو يحتضن الباب، وصاح فرحاً:

جاءت (هـ..)!!، أذهلته المفاجأة، وتساءل: كيف عرف اسمها، لقد تقدم هذا الفتى كثيراً وهو غافل عنه، فأحس بالاستياء، أقبلت وهي أكثر إشراقاً تحت ضوء النهار، يبدو أنها أصلحت هندامها ووضعت حجاباً رقيقاً فوق رأسها الذي بقي عارياً طوال الليل.

كان يرقبها في العتمة والضوء المتسرب يلامس شعرها فيحفز فيه الرغبة ويوقظ الحواس.

الآن تضع حجاباً شفافاً لا يدري لماذا كان مزيجاً من الألوان، لاشك أنه لدواع لا يفهمها، سلم بفتنتها الطاغية وبحضور لا يمكن مخاصمته لكن في باطن عقله الموروث كان يود لو وضعت لمسة تشدد عليه.

عاد إلى صورة عمار المتقدمة كثيراً فشعر ثانية بالاستياء، رغب أن يقذفه بكلمة نابية إلا أنه اعتبرها كلمة سوقية فانصرف عنها مؤقتاً، وأخذ يرددها بينه وبين نفسه بصوت خافت، وعندما سأله عمار: إن كان يعاني من ألم؟

اعتراه إحساس غامض وشك أنه سمع ما كان يردده، فأجابه بالنفي وقال: إني أقرأ دعاء.

كان تواقاً إلى لقاء الاستراحة، رنا إليها، توزعت رغبته بين هذه الألوان وبين خصلات شعرها التي كانت تزيحها جانباً كل حين، وهي تسأله وهو يجيب، كانت بالغة الرقة، واكتشف وقتها أنها لا ترغب بالحديث عن نفسها أو عن دموعها... سألته عن ظروف سكنه في الشام، ثم إن كانت لديه عائلة، كانت تسأله بطريقة التتابع وكأنها تعد سؤالاً لاحقاً يلي إجابته، حتى كاد أن يعترف لها بأمور خاصة وهي تتأمله بهدوء، وحين سألها عن الحرف الأول من اسمها، تطلعت إليه بنظرة غريبة وقالت: (هـ) ثم ابتسمت وهو ينظر إليها بإعجاب.

ولما أرادت أن تعرف سر تواضعه وهو في عصر العولمة، اعترف لها، إن الطلب على عفويته سيمنحه فرصة تكوين قائمة طويلة من الأسماء الملائمة التي تبدأ بهذا الحرف.

وذلك يتيح له فرصة اختيار ما هو في اعتقـاده أكثـر الأسماء قرباً إلى الصفاء والنقاء والرقة والوجـه الجميـل. ولتقطيبة فوق جبينها ظن أنها لم تقتنع، وربما خمنـت أنـه سيضع كلمة (هزيمة) على رأس القائمة، لذلك توقفت ولـم تعد تسأله إلى أن داهمهم عمار، فاستحق اللعنة كما ورد ذلك في الصفحة (٣٩).

أمده صوت العجلات بقلق شديد وفي مـرات سـابقة ساوره الشك وهو بين اليقظة والمنام أن الشارع بلا نهايـة وأن المسافة التي يطويها تعاد وتضاف كل مرة إلى الطريق، لذلك لم يثق بما كان يعلنه المساعد بين منزلة وأخرى عـن قرب الوصول.

عندما ترك الحدود وراء ظهره اتكـأ علـى وسـادة صغيرة مغالياً تلك اللعنة، فشاهد العربات المحترقـة عبـر النافذة أيقن أنه بالاتجاه اليتيم.

بقيت حالته على حالها، ولم يبذرها ، ولم يعثر علـى عنوان يليق برغبته فشعر بالخجل وتمنى لو يعلـق بـشيء حتى لا يتصيد شفتها السفلى المطبقـة علـى سـر تخيلهـا حريصة عليه، لكنها كانت متواطئـة وتـشاركه الـصمت وتحرضه على استخدام قاموس الكلمات النابية ليقـذف بهـا عمار.

سرقته ذكرى دريد ومكانه الذي ظل شاغراً وتمنى لو يستحضره كما تستحضر أرواح الموتى لعله يبوح بـشيء، فمثل أمامه بعد عناء مرتدياً تلك الحيرة وذات اللحية ونفـس الخوف الذي اعتراه عندما علم بمثلـث الحـافلات، وهـي

التسمية التي أطلقت على تقاطع في الطريق، يقال أن الحافلات تختفي عنده كما تختفي السفن في البحار، كان الخبر مشوشاً. وأضفت عليه أجهزة الإعلام مسحة غموض، وبعضها أطلق اسم (الموت) على التقاطع المشؤوم.

كان ارتباك دريد واضحاً، ولم تكن حالته أفضل من أولئك الذين يبحثون عن شرخ ليدخلوا منه أو مخبئاً خلف جدار.

بقي مكانه الشاغر شاهداً على الفزع الذي لبسه ليقفل راجعاً ويترك كل أمانيه في مستودع بلا باب، لن يعثر بعد اليوم على شماعة يمكن أن تكون صالحة لشيء، لكن الفرصة لازالت متاحة، عندما يحصي لياليه القادمة في تلك المساحة المحصورة بين رغبتين.

الأسماء ما عادت تعنيه حتى وإن كان من بينها عمار، وكل النساء عنده تتساوى في الليل وكل الأقنعة أيضاً عندما يقف مرتدوها في المكان الخطأ بانتظار الرحيل.

بقي عمار بدشداشته لا يمل الوحدة ولا يبادل أحداً سوى الشرود وهو يتطلع في الفراغ، لو راقبته لضبطته خارج المكان، مستعيراً هواية أخرى حين بدا يتطلع إلى خارج النافذة ليحصي العجلات.

شاهد عربة إسعاف وسيارات شرطة، وتعرف على بقايا حافلة، واستطاع السائق في اللحظة الحرجة أن يزلف عن عارض طريق.

حصل لغط كثير، صرح أحد الركاب: إن العناية أنقذتنا، وقال آخر: يا منجي من المهالك، وأضاف المساعد: لا أحد يتخيل حجم الكارثة لولا مهارة الكابتن، وكانت أول شهادة يحصل عليها السائق من هذا المساعد الذي انفرطت على وجهه ملامح الخوف وهو يغلق النوافذ الزجاجية، التي فاض بها الضوء.

كانت الحافلة تؤز فوق الإسفلت الذي انساحت عليه بقع الزيت في مساحات معدة للمنازلة بوجوه لا تعلن عن ملامحها وتمد سطوتها، لكن هذا الفتى الذي قال عنه دريد أنه (أمير) هل يستطيع أن يمتد بسطوته كما يمتد غيره على الطريق؟! وكيف له بردم الهوة التي تفصل بينهما؟

تخيله ملتحياً ومرتدياً جلباباً قصيراً وقد نبت له شعر طويل.

اعتدل عمار بجلسته متطلعاً، كأنه أحس بهذا الخيال الذي يدور حوله وركز بوجه وشم المحمود وسأله:

- من الذي أوصلنا إلى هذه الحالة؟! أجابه بهدوء:
- المقريزي.
- هل هو قائد مجموعة؟
- إنه مؤرخ.. صاحب كتاب المواعظ والاعتبار.
- ما علاقته بالعربات المحترقة؟
- علاقة إبعاد شبهة.
- هل هي شبهة مخجلة؟

- نعم.. يصف المقريزي بعض الشعوب بالجبن والقنوط وقلة الصبر وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب، والسعي إلى السلطان، ويغلب عليهم الشر ودناءة النفس، ونساؤهم تضرب رجالهم، واعتبر هذه الصفات نابعة من طبيعة الأرض ونوع المياه ولون السماء، ونفس الصفات إلى الحيوان أيضاً، في الأرض التي لا تصلح لسكن الأسود، فإذا دخلتها فإنها تذل ولا تتناسل وحتى الكلاب تكون أقل جرأة من كلاب غيرها من البلاد ونباحها أضعف، وأكثر الكائنات انسجاماً مع هذه البلدان هي الأرانب، والمقريزي ينأى بالعرب عن هؤلاء ويبعد الشبهة عنهم، ويصفهم بالشجاعة والكرم. قال عمار:

- أنا أمقت البخل. رد عليه وشم المحمود:

- عليك أن ترفض الذل.

- لقد رفضته.. ولطالما تضرعت داعياً بهلاك المارينز.

- الدعاء ليس ضد الإيمان، لكن الرضوخ ليس من الإيمان.

صمت عمار ثم نظر إليه متردداً وقال:

- لم تجب لحد الآن، من الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه، أريد جواباً واضحاً ولا تقل لي المقريزي.

- العلة تكمن في الشخصية، أعني (الانقطاع في الشخصية).

– لكن بعضهم يقول إن عدم انقطاع خيط الحزن في شخصية العراقي هو سبب الانبطاح.

– نحن لا ننبطح، بغداد قلعة الأسود.

– هل لدينا أسود؟!!

– أكثر مما تتصور.

– على حد علمي، لدينا أسد واحد كان معروضاً للفرجة في حديقة الزوراء، فتحوا له الباب واختفى يوم الاحتلال.

– لم تفهم قصدي، الأسود التي أعنيها غير تقليدية، إنها من فصيلة أخرى، انظر إلى هذا الطريق المؤثث بالموت.

– متى نصل بغداد.

– لا أحد يعلم، قد نصل أو نقاد إلى مكان مجهول.

– أيهما ترجح؟

– أنا لا أرجح، القدر هو الذي يختار، لو كان ديكارت معنا لغيّر مقولته الشهيرة من (أنا أفكر.. أنا موجود) إلى مقولة أخرى.

– هل هو مؤرخ؟

– لا، إنه فيلسوف.

انقطع الحديث عندما جاء المساعد ووقف قبالة عمار، ومال إلى قائم المسند والتصق ببطء، وبإشارة ضحلة شده إلى مقاعد الصف الأخير، وهمس له مرغباً ليشرب الشاي عند امرأة مترقبة تجلس هناك.

بدا مستسلماً، ارتسمت على ملامحه بعض علامات القبول، لكنه تراجع، وأخذ ينظر بوجه وشم المحمود، ربما في تلك اللحظة أحس أنه مطالب بتفاصيل يبدو أنها ليست بتلك البساطة التي حسد نفسه عليها عندما عبر الحدود، ولكن ماذا يفعل؟!

تصلب وشم المحمود متضامناً، فهو يعرف المساعد، وكان على استعداد أن يكون أكثر تضامناً ويطرده، لولا عمار الذي فاجأه وأعلن القبول.

لم يلبث طويلاً حتى عاد يجر خطواته وبدت الطاولة بينهما ضيقه وهو يتكئ عليها سانداً رأسه متطلعاً إلى السقف، هارباً من سؤال لا يريد الإجابة عنه، كان مزاجه سيئاً، لاشك أن تسوية إضافية قد تمت في المقاعد الخلفية، استنتج أنها غير عادلة، هو لا يدري ماذا تم بالضبط، الذي يعرفه أن أوراقاً له قد رتبت مع تلك المرأة التي أبدلت حجابها بآخر يشف واجتاز بها الحدود استجابة لنصيحة غير خالصة، قبلها تحت هاجس الخوف والعمر المثير للارتياب.

كان الأمريكان قد وسعوا لمن كان برفقة ؛في البداية كانت بلا شروط وأي فتاة (كبل) تعتبر رفقة ويسمح لمتأبطها بالعبور ؛ وفسر بعضهم هذه التسهيلات على أنها نمط متقدم لعدم التدخل في الحياة الشخصية وتعبر عن احترام تام للعلاقة بين الجنسين، إلا أن هذه الصفة المتقدمة تراجعت؛ وأصروا فيما بعد أن تكون مدونة وممهورة بختم. فاغرى ذلك بعضهم ليظهر عند الحدود ويقدم خدماته بروح (البزنس) ويبدو أن المساعد لم يلتزم بآداب المهنة وأضاف

لها (سكرة) وها هو عماراً يعود ومذاقها لازال في فمه ؛ لقد تجرعها مذابة مع الشاي .

بقي الخط الفاصل بين السماء والأرض كصدفة لعينة مضادة للتمني، لم يكن أمامه أمل يمكن تسلقه، وعلقت أمانيه بأفق لاح امتداده كلهيب أحمر من بعيد.

صوت العجلات كغيوم رمادية لا يفصلها عن السماء سوى يقظة مترنحة بين لحظة وأخرى على نتوء أسمنتي أو صوت عبوة يهز الأرض ويقلب بما فيه الرصيف. واعترف أن للعبقرية صوتاً يغري ولكن لمرة واحدة، وثانية لن يعود، لأنه يكون قد لحقه الوقر وشيع لمثواه الأخير.

تخلى وشم المحمود عن نقاط التفتيش المحترقة وتركها من غير جنود، واستسلم للياسمين المعرش عند الأسيجة وفوق البيوت، مؤجلاً موسم (الشرجي) القادم من الخليج.

بدأ يرقبها وهي تتنفس عطرها، فوجدها ممتنعة عن الرقاد، حاول أن يحرضها لتمده بكلمة نابية ليقذف بها عمار، أدارت ظهرها وتركته بلا كلمات، تصدع تماسكه وانحدر بيانه متدحرجاً متسارعاً مع العجلات. عندما سكب إجراءات الحدود في وعاء ليلته المسهدة تشتتت ذكرياته المتداعية وانسل بنفسه متكئاً على وسادة رخوة بهت لونها خارج الظل. اجتر تمهله وهو يرشف الشاي على سرير أرجوحته تحت فيء نخلة الدار.

سرقته تلك العتمة بسعفها المتشابك وتمنى لو أمسك الخرطوم لينتعش برذاذ الماء، إلا أن تلك الأمنية كانت كعقد

مسروق انفرط بغتة عندما استفاق على علامة طريق تركض لاهثة إلى الوراء، استدل أنها تشير إلى مدينة كانت هناك.

وقبل أن يحدد الاتجاه الذي يفضي إلى منحـــدر طـــي الكتمان، اختفت وسط حقول سفت عليها الرمال.

السرقة كانت على بعد شفتين همس بهما عمار، وهـــو بين اليقظة والنوم، سرب وشم لعينيه إغفاءة مزورة، أراد أن يخدعها، وتلصص مسترخياً بإهمال من أجهده السفر.

كان عمار يلوك كلاماً في الهواء ويكرر قبلة يرســـلها بين جملتين وهي تبادله القبول.

هذه الفتاة لم تقتصد بعواطفها طيلة الرحلة، وراء مشهد البكاء الذي أزاحته، تجدد ظهورها خلف ستارة أخرى، بـــدا صدرها نافراً تحت النسيج الذي تقلصت حافتـــه البيـــضاء، وبأن حزام الجوبة ملتصقاً بلحمها، اتسعت تلك المساحة بما يكفي لإضافة إيمان جديد وقبول لغة أخـــرى غيـــر عابئـــة بالأبواب المواربة، وكأنها لا تدري أنها دعوة للـــدخول، إذا أغلقت دونها ستتركها كوسادة فوق سرير.

كانت تبادل وشم نفس الشفتين، وهي تفتح ثغرة ليدلف منها إن أراد إنما بعسر شديد، وعلى موجـــة أخـــرى تبـــث لـــ(عمار) قبولاً يسمح بالولوج بلا عناء ودون تسلق جدار.

قال في سره، إنها غير عادلة، تراجع يلتمس لها العذر، قد تمتنع أو تتردد، لكنها لن تصمد أمام الرياح.

ربما كانت راغبة أن تخطو بحذر نحو بوابة الهزيمة، وتمنى لو استغنى عن عناء تسلق النوافذ، ولـــو استحـــضر

المرأة التي ودعتها بأقل قدر من الاحتشام، كان من الممكن استثمار حضورها، لكن صورتها لم تكن قد اكتملت في مرآب الانطلاق.

على مرمى من إغماضته المتلصصة بارتخاء، دونت رقم هاتفها الجوال، كورت القصاصة وقذفت بها عماراً، أفاق وشم المحمود مبتسماً، أفاق من إغماضته المزورة وهو يمسك بذيل تلك اللحظة المحمومة كشاهد إثبات لمرحلة سيؤرخ لها فيما بعد، نظر إليها محايداً، كانت تلقائيتها مطابقة لنقطة الاستراحة قبل اجتيازه الحدود عندما تطوع لقراءة شفتيها وقدّم لها قدحاً من الشاي، وتحاشى أن يعيد قراءتها، إلا أنه خمّن بإحساسه القديم، إنها تدربت على تبادل أشياء أخرى خارج بطاقة الائتمان.

الحافلة مسرعة تتعجل الوصول قبل موت ذلك النهار، كان يشغله شخص ما، حين دخل دائرة التغطية لشبكة المحمول، انهمك بالاتصال، تألم كثيراً، كل من اتصل به يجهل أين هو الآن، لقد ترك المكان وانقطعت هواتفه، التقط هاتف المنزل، جاءه الرد عصبياً، عرف صوتها، حاول أن يفهم شيئاً من بين الكلمات الدامعة، لم يوفق، أغلق الخط، ووقف أمام أرقه الداخلي صلباً لمواجهة المجهول.

ارتفع قميصها الشحيح إلى الأعلى، غادر جوبتها القصيرة، وهي تنزع الحجاب، كموجة مسبقة الانحسار، بان جزء من ظهرها عارياً، تذكر عبارة قرأها ذات يوم، "لا يوجد أجمل من ظهر امرأة عارية" فأبدى إعجاباً مطابقاً لهوامش شخص ما كان قد سبقه ودونها عند حاشية الكتاب.

استأذنها بابتسامة، بادلته الابتسام، هل يحتاج طلب رقم الجوال إلى مقدمات، كتلك القبل التي أرسلها عمار؟ ألم تكن مقدمة لقصة حب يتم كتابتها لاحقاً، سيبدأ من تحت شفتها السفلى، هنالك شيء ما حقنته عند الزاوية، شيئ ما يحرضه في هذا المكان.

من تحت هذه الشفة التي لا تكف عن الدعوة، سيمرر رغباته بطريقة حضارية، لكنها ستكون مموهة، لأنه لا يستطيع أن يقف عارياً دون طلاء، إنها بداية، لكن يريدها واضحة النهاية مغايرة، متقاطعة مع تلك القبل التي رسمها عمار.

يريد أن يبدأ بداية مختلفة، تنتهي بنهاية غير متوقعة، هو دائماً يكره التكرار ويعرف وتر كل نغمة معادة فذاكرته كانت ممراً سرياً للنساء، تجرأ وطلب جوالها بإشارة ضحلة كأنه يعتذر مسبقاً عن فارق العمر الذي يملي عليه الانزلاق باتزان عندما يقف على مرمى أربعين عاماً من التهور.

انكمشت بحركة مباغتة مخاصمة، أنكرت، لكنها كانت متواطئة، لم تلبث حتى رممت الود وأشاعته بمقياس إلى حد ما يعتبر مقبولاً عند مراعاة المسافة الفاصلة بين عمرين.

تمنى لحظتها لو تطلع بمرآة ليرى كيف يبدو محبطاً في مكان غير مكانه، كان عمار واضحاً، وفياً لرغباته المغلفة بالفضيحة، توجس من شيء غير معلن في داخلها، لم يعد مطمئناً لشاطئها البعيد حتى وإن كان واعداً بالاجتياح.

تراجع إلى مشارف مستوطنات الرعب، أقام حـواجزه لمنع عدوى قابلة للانتقال بين الأيادي المرتعـشة والـشفاه، تمنى لو يستطيع أن يمسك بخيوط اللعبة في هذه الساعة كما كان في الماضي، لكن في هذه اللحظة بالذات هو أقرب إلى نكسة حزيران.

جميع احتمالاته سوداء، قلبها على جوانبها بكل اتجاه، لم يجد غير منفذ واحد يفضي إلى ذاكرة الأيام القريبة، إلـى جسد مرشح للنهش في مقلـب قمامـة، أو عالقـاً بغـاطس تصريف.

في مكان ما تخاط الرؤوس على الأجساد، ولما كـان للخطأ مساحة قد تختلف نسبتها إلا أنها قائمـة بتـواتر دون ضعف، يحصل أن يخاط الرأس على جثة رجل آخر فيخرج من قبره محتجاً على فارق الضجر. في مقبرة الصدفة، يلحق الرأس مع الجثة، وربما لوحدها، ويلحق الرأس بعد حـين، وقد يترك سهواً.

تثاءبت على زجاج النافذة، توجه نحو شفتيها، أحس أنه افتقدها منذ زمن بعيد، ردت عليه بصمت عينيهـا كحـزن معلق بين ضفتين. بدت الحافلة متمهلة أمام نقاط التفتـيش، وسارت بتؤدة بين الكتل الكونكريتية والعلامـات الحمـراء، السائق مستنفر، الجميع في حالة ترقـب، كـأنهم بانتظـار فاجعة، طلب أحدهم النزول، سـرى اللفـظ كعـدوى بـين الركاب، أمسك السائق اللاقطة نقر عليها، أعلن أمراً، أصدر شيكاً من غير رصيد.

تناول المساعد اللاقطة وقبل أن يعيدها لمكانهـــا، نقـــر عليها، أراد أن يضيف شيئاً، إلا أن صوت قذيفة مرعدة في ذلك المساء اللامع مرغه في السكون.

اخترق الرصاص صمت الحافلة، لامس نوافذها، أمسك وشم المحمود علاّقة المفاتيح، تلمّس دميتها، تمنى لو يربطها بتفاؤله في تلك اللحظة وهو بين الكتل الصماء، لكنه تساءل عن مدى إمكانية إعادة صياغة المرثية لو راقبه (الدؤلي) [١] وهو يمسك بتميمته ليمرق بهـــا بـــين الـــدخان والتـــشظي والمجاري الطافحة وحاويات الموت. ساوره الشك لأن هـــذا الشاعر لم يختر غرضه، إنما اختاره القدر، ومازال يتربـــع بعناد فوق جبل مطبق على كل أشطرها السوداء.

كان بوسعه أن يمد شفتيها بشطر من مرثيته، إلا أنهـــا كانت منهمكة بأوراق الجوال وعمار مشتت كالخريف. عاد يأكله الشك وهو ممسك بتميمته، صامت، مواظب، متمترس خلف ذاكرة الزمان.

انتزعه صوت امرأة احتـــضنت طفلهـــا وهـــي تقـــرأ دعاءً....

دعاءً آخرَ غير السفر...

دعاءً نقياً كحبات المطر...

---

(1) صاحب البيت المشهور:

إذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت ألف ألفَ تميمة لا تنفعُ

انفجار يتبعه حريق

ابتسم الرجل ذو السترة الواقية وتراجع إلى الوراء، لم يكن بحاجة إلى تعريف، فالعربـــة ذات الجوانـــب المغلقـــة، وعلامة (T.V) الملونة وصحن الالتقاط الواســـع، إضـــافة لسترته، كل هذه الأشياء وسط المشهد، تغنيه عن التعريف.

رفع يده لشد الانتباه، وقال:

انفجار... يتبعه حريق، تتداركه عربات الإطفاء، لتعافه خراباً كهذا الخراب. أقدر اهتمامكم، ولكن الحذر مطلـــوب، نحن الإعلاميين نتسابق لنكون عند خط النار. وأخذ يتطلـــع بالوجوه، وبدا مستعداً للتضامن مع الراغبين بالبوح، لكنه لم يقرأ في ملامحهم رغبة بالظهور، في السابق كانوا يتدافعون، لقد تراجعت هذه الأمنية، وحل محلها ارتياب.

كنت على وشك أن أقول لصاحب السترة شيئاً، ولكـــن ماذا عساي أن أقول، لقد جئت لاهثاً ولم التقط أنفاسي بعـــد، واختلطت خطواتي المتسارعة على الرصيف مـــع صـــوت العربات الراكضة والعويل، والرصاص متشظياً رشقة إثـــر أخرى تئز، والعربات المدهونة تحمـــل علامـــة (police).

لاحظت وأنا أعبر الشارع، صناديق رديئة داخلها أفـراد لا يظهر من بنادقهم غير المواسير وخمنـت أنهـا صـممت لمتطلبات الأمن، وأنها محلية الصنع.

إحساسي الداخلي يقول؛ إن الواقعة وقعت، ورغم هـذا الإحساس الذي ساقني بسوط، لم أتوقع أن يداهمني الخراب.

وقفت مشدوداً وأنا أنظر إلى المكتبة، وأصابني ذهـول وصمت شبيه بصمت القبور، فحين أمعنـت بالمكـان، بـدا غريباً، ولم أشاهد ما استدل به عن الأيـام الماضـية غيـر رفوف ملتوية، وبقايا كتب أكلتها النار، كان الحريق قد خمد، وما زال الدخان يتصاعد، والفقاعات طافية، والرغوة تسيل.

ولسبب غير واضح بدأ الناس يتجمعون، وقفوا علـى مسافة من الحريق، لم أشاهد ذلك الخوف الذي يعتريهم عند الكوارث، إلا أن بعضهم وقف حذراً يرقب من بعيد. تحرك الرجل ذو السترة الواقية ابتسم ثانيةً، وهو يتطلع بالوجوه، لم يعبأ بالرغبات التي لم تعلن عن نفسها، لـم يعبـأ برغبتـي أيضاً، من أين له أن يعرف الرغبات الصامتة! من أين له أن يكشف المستور! فلا غرابة أن عاد يكرر: انفجار..انفجار .. يتبعه حريق، تليه الأصوات اللاهثة لعربات الإطفاء، وتعافه خراباً كهذا الخراب، وأشار بيده إلـى الجـدران والأبنيـة والرصيف المثقوب.

وأضاف.. إن حدثاً كهذا سيحفز فضائيات أخرى، وإذا لم يتواجد أحد غيري فذلك بسبب الطريق، قبل أن تـسألوني كيف جئت؟

أقول: إنها محض صدفة، لم أستلم رسالة، ولا حتى اتصال، لقد شاء القدر أن أكون قريباً من المكان.

انحدر الماء إلى الشارع، وأتاح لخطواته بعض اليسر، مدها وهو يلف حول الوجوه متصيداً الراغبين بالكلام، بدا بحس المحترف ممسكاً بالوقت، تحركه رغبة مهنية لينال السبق، قبل أن يتقاسم الفاجعة مع فضائيات طارئة مرشحة للوصول بين لحظة وأخرى.

عندما استقر أمام المكتبة وخلفه الجدار الساخن، أحس بثقل الوقت، وكتقليد مهني مراوغ، أراد أن يمهد للعمل، ثبت أطار نظارته، وهي لازمه دأب على تلقائيتها من غير اهتمام، واستدار بخفة نحو شاب يحمل آلة التصوير، وقال: عندما نربط السلك بالمقبس، سنبدأ العمل، عليكم بالهدوء، إنه غايتنا ومطلبنا الوحيد، وهو إجراء احترازي، حتى لا نتعثر ونبدو غير حضاريين. هذه اللقطات ستبث إلى الدنيا، لا داع للتفكير، اطمئنوا، ستلهمكم الصورة الشيء الكثير. الحريق خلف هذا الرماد الناعم الذي يلمس برؤوس الأنامل، أما الصورة فلا تلمس باليد، إنها تلمس بالخيال، ستتكلم الكامرة بلغتها وتمدكم بصور لا تخطر ببال، سنبدأ من هذه الخطوة من هذا الشاب، حين يوقد الشعلة سيغمرنا الضوء، ونكون قد قطعنا نصف الطريق، أما النصف الآخر فهو لا يشط كثيراً عن النهاية غير السعيدة الماثلة للعيان.

توجس من التجمع الذي بدأت دائرته تضيق، هو يعرف ما تتركه النار من أشياء غير الرماد، حاول أن يشتت الأفكار التي زحفت تحاصره، وقال: أريد أن أعرف إن كان

لأحدكم اعتراض، إنه سؤال تقليدي، نحن لا نسأل عن المئذنة، نظر الجميع إلى الناصية الأخرى من الشارع، إلى ذلك العلو الشاهق، المئذنة.. مازالت رابضة، وتصدح كلما حان الوقت، وعندما تهد سأرتدي رداءً غير هذا الرداء، أنا لا أعني السترة الواقية المدون عليها (PRESS) سأحضر بنفس العلامة، لكن الحديث سيكون بغير هذه الكلمات .

انسجاماً مع عصر العولمة لن نسأل عن الكتب، ولا عن ألوانها، ما عادت تعنينا هذه الألوان، نحن نسأل عن الشابة المثيرة... المثيرة جداً للاهتمام. امتعضت من الوصف،وكدت أن أصرخ بوجهه،إلا انه واصل ، وتواصلت معه وهو يتابع...

المعلومات المتوفرة أن (فطين) صبي المكتبة أصيب بحروق ونقل بعربة إسعاف، أما الشابة الديناميكية التي يعرفها متابعو الإصدارات الجديدة. لا أحد يعلم عنها خبراً، يقول بعضهم عالقة، وربما هي الآن تبحث عن شيء، أنا لا أعرف، من منكم يعرف عنها شيئاً؟.

كنت على وشك أن أقول له: أنا أعرف هذه الشابة أسمها (مها) وكانت ترتدي صحف الصباح مع قميص كلمات، ولكن ما فائدة هذا الكلام الإنشائي، أمام ملامح مرتبكة التأمت على غير موعد بدافع الفضول.

تراجعت وقررت أن أجرب بداية أخرى وأقول.. إني أعرفها ففي أول لقاء لنا سألتني عن اسمي وأجبتها، ورددته برقة لم أعهدها، حتى إني تخيلت: أن اسمي تبدل بين

شفتيها، وأضحى بأحرف جديدة وبنغمة أجمل من تلك التي يناديني بها الناس.

ولكن هذه البداية رومانسية، لا تنسجم مع الكارثة.

إذاً سأقول أنها رشيقة، تتمهل، تمشط شعرها المبتل، تحظى منها بابتسامة إن أقبلت، لها فائض أنثوي يكفي سبع بنات، يدعوك لأن تقع في حبها أكثر من مرة، ترتدي بنطالاً ضيقاً، أزرق اللون لم تغيره، كنت أعتقد أنها لا تملك سواه، ولابد أن أعترف بغبائي، فقد ظهر لديها أكثر من بنطال بمقاس واحد باللون نفسه وكلها ضيقة، كانت عندما تميل برأسها إلى جهة اليمين وتسند كفيها على طرفي البنطال، يبرز ذلك الخط المثير الذي يغري بالبحث عما تحته ، ولكن ماذا لو قلت: إني ضبطتها ترتدي فستان، ولا أجزم بأيهما كانت أكثر إغراء لحد الآن. هي فاتنة وبصراحة أعم: متضامنة الأرداف... سأحذف هذه العبارة... هذا الكلام لا يصح على الهواء. إن عذقاً بهذا النضوج لا يمكن فرطه أمام الجمع المرتاب. كيف أبرر تهوري على الشاشة إذا ظهرت وأنا أضع رأسي داخل الطوق. سأربط لساني حتى لا ينفرط بتفاصيل أقولها، وهي لم تحدث على الإطلاق.

صرفت اهتمامي عن الأرداف المتضامنة، وقررت ألا أطالع المجلات التي تروج للتضامن بعد اليوم. في الحقيقة أنا لا أدري لماذا وصفتها متضامنة، ربما لأنها تهبط على الفخذين هبوطاً، ويشدها البنطال مرفوعاً إلى الأعلى، ويمتد الشد إلى عيون المارة فتزوغ عيونهم حتى وإن كانوا من الصنف الذي لا يحدق بمؤخرة النساء. لكن الشد الأعظم

يكون عند فتحة الصدر الهابطة المجاورة للمـــشد القطنـــي، الذي تستبدله أحياناً بمشد من الحرير، إلا أنها كانت تـــصر على لونه الأحمر الذي يمسك صدرها، وتصر على بنطالها المجنون الذي ترتديه ببراعة أكثر بألف مرة مـــن براعـــة لبنى[1] التي حكم القاضي عليها بغرامة لارتدائها البنطـــال، كان مذهلاً بنطال مها ويمسك ردفيها بإحكام، وكثيراً ما تـــاه نظري بين مفرق النهدين. كنت عاجزاً عن الارتقـــاء إلـــى عينيها، إلا أنها كانت تشجعني وتأخذ بيدي إلى الأعلى، فـــي عينيها بحر يسع لتايتنك أخرى، إلا أن المسافة بين انضمامة النهدين لا تتسع إلا لقارب صغير.

عندما تجرأت يوماً ودسست يدي بين .... أعني تلـــك النقطة التي يلتقي عندها البنطال، نظـــرت إلـــي بـــصمت، واقتربت مني دون أن تقول شيئاً، وألصقت صدرها بوجهي وتأوهت .

تغيبت متخفياً أسبوعاً بحاله، وأنا أســـتنزف الخـــوف، ولما عدت قرأت في عينيهـــا خوفـــاً لا يـــشبهني، أحـــسَّتْ بحيرتي، فأسَّرتْ لي بحكايات عجيبة وقالت: كثيـــرة هـــي الأشياء التي لا تشبه الأسماء، ومن يومها وأنا أخشى افتقادها إن عدت لفعلتي الشنيعة ودسست يدي في ذات المكان..

كنت على استعداد لأمد خيالي إلى أمكنة أخرى أكثـــر تضامناً لولا ذلك الصوت الذي أفزعني وهو يقتحم الفاجعـــة

---

(1) لبنى الحسين – صحافية من السودان.

معلناً عن رغبته بالظهور، فما كان من صاحب الستيرة الواقية إلا أن وسّع له، وبدأ الكلام...

- أنا من المحل المجاور وبحكم موقعي القريب، أعرف أشياء كثيرة، وأستطيع أن أدلي بمعلومات قيمة يمكن الاعتماد عليها، لو كنت أعلم أن هذه الشابة ستحظى بهذا الاهتمام، كنت سأحتاط، وأدون كل ما أشاهده يوماً بيوم، لكن إذا قدحت الذاكرة. أستطيع أن أضعكم أمام الصورة منذ ساعات الصحف الأولى، حتى آخر النهار. وللتوضيح وبعيداً عن حالات الانفعال، الكل يعلم، أني لا أطالع الصحف، وأكتفي عند المساء بمتابعة المرناة، ومن خلال المتابعة تكونت لي فكرة عن النقل الحي، لذلك تطوعت لكسب الوقت، ولن أكسب شيئاً إذا أضفت من عندي، أو تفوهت بأشياء غير صحيحة، أو أخفيت أشياء تفيد التحقيق.

احتج ذو السترة الواقية، وقال:

نحن لا نحقق بالمعنى الذي تتخيله، ليس لدينا أوراق، ولا شرطة، ولا مخبرين، إنها مجرد آلة للتصوير تضع المشاهد دفعة واحدة أمام الحدث، ونربطه ربطاً حتى لا يزوغ. أنت تعرف وغيرك أكثر، كم عدد الفضائيات الطامعة وكيف انحدرت وهي تتكالب على الإعلان.

وقبل أن يعاود المتابعة، خطف اللاقطة شخص آخر، وقال: أنا أيضاً من المحل المجاور، أقصد من المحل ما بعد المجاور. اسمي فرهود، وحتى لا يربط اسمي بـ(الحواسم)[1]

(1) الحواسم- هو الاسم الذي أطلق على تلك الفئة التي قامت بنهب ممتلكات الدولة أثناء الاحتلال.

أو يثار حولي غبار، أود أن يعرف المشاهد، إنه يعني الأسد بلغة أهل الصومال وربما بلغة العرب العاربة أيضاً، لكِني مسالم ولم أفترس أحداً، وحتى في المستقبل لا أنوي الافتراس.

متخصص ببيع الخلوي وبطاقات الشحن المسبق، أو مسبق الدفع، كما يحلو للبعض، هذه المهنة خلقتها الظروف، ظروف ما بعد السقوط، أعني ما بعد الاحتلال، الموبايل، الخلوي، المحمول، الجوال، سمّه ما شئت، كان محظوراً في السابق، لا أدري لماذا كان محظوراً، إنه أحد أفضل وسائل الاتصال وأهمها على الإطلاق.

قاطعه الرجل ذو السترة الواقية، وقال:

انتبه جيداً، عليك ألا تستغل الفاجعة، محطتنا لنقل الحقيقة، وأنت تنساق خارج الموضوع، كأنك تقدم إعلاناً، نحن لا نسمح بالإعلانات المجانية، ولا نسمح أن نستغل بهذا الفضول، أرجو أن تركز معي.. عليك أن تقتصد بالإيضاح، وأن تبتعد عن التعريف بنفسك أو بالبضاعة، ولا ضرورة للتعريف بالمكان، هذه المسميات تدخل تحت باب الدعاية، عندما تخص بفرصة لتظهر بالصورة والصوت، عليك أن تثمن السخاء. أنت مباشرة على الهواء، ولو لم تكن على الشبكة لتركتك تقول ما تشاء، وبعدها أخضعك لمونتاج قسري حتى لو كنت أسداً بحق. لكن الفرصة لازالت قائمة، سنبدأ ثانية، انتظر سأعود بعد قليل.

اطمئن: قال فرهود أنا أعرف ماذا يعني النقل الحي، إني بانتظار الإشارة لأبدأ من جديد.

إلا أن الفرصة لم تتح له ليعود، تقدم شاب طويل متمهلً واثقً من نفسه، وقال:

أنا أعرف مها وأعرف أين هي الآن، ذهبت إلى مكتب الناجين من الكوارث لتعد استمارة عن الأضرار، وشاهدتها برفقة صديقها الجديد. عندما نطق بهذه العبارة نظر بشماتة كأنه يعرفني وخصني بالذات، وبلا وعي صرخت بصوت قوي "أنت تكذب" رسمت بيدي علامة متقاطعة في الهواء وشطبت الكلام، فسرى لغط بين الحاضرين، تداركه الرجل ذو السترة الواقية، بدا متعاطفاً معي. كان ذلك واضحاً على ملامحه، وبرقت عيناه من تحت الزجاج، وقال: نحن لا نسجل هذه التراهات هذا كلام خارج اهتمام محطتنا، وبالتالي لا يعنيني بشيء، وإذا غطيت الوشاية بالصورة والصوت، دون مونتاج، لن أكون بمنأىً عن الاحتجاج، وربما نتعرض للضرب.

كنت بالأمس أنقل واقعة مأساوية، ولمست الإحباط في الوجوه، وقرأت في عيونهم الرغبة بالكلام، وكما يملي علي الضمير، قربت الكامرة إلى أحدهم، وقال: تسقط (الفوضى الخلاقة) يبدو أن مصادره جيده ومتابع للأحداث ومهما كانت مصادره، أنا غير معني بها، المهم أني وفرت له سانحة، وأتحت له الفرصة، ليعبر عن شعوره في تلك اللحظة الملعونة التي ارتداها بجنون. لقد قرأته بعمق، وهذا ما أفعله بالضبط.

حانت منه التفاته إلى الشاب الطويل، وخصه بنظرات تأنيب، وعاد ليؤكد: يمكنك أن تواصل ولكن بانضباط، أكرر بانضباط.

وقبل أن يتفوه بكلمة قفزت كالمجنون وحجبته عن الكامرة بحركة سريعة وأصبحت أمامه وجهاً لوجه، وقلت: لا داعي للكلام، المشاهد أذكى مما تتصور، وما تهذر به؛ يصلح للسخرية لا غير. عندما تتكلم عليك أن تقول الصدق. أنت تعاني من إحباط، أو من مساوئ السكن المكتظ، وربما خارج من تجربة عاطفية فاشلة، أو -وهو احتمال وارد- أنك تفكر بالانضمام إلى إحدى الكيانات.

ضحك الشاب الطويل ضحكة طويلة، وقال:

- أنا لا أعاني من شيء، أنت ترميني بالذي تعانيه، أنت تتكلم عن حالتك بالضبط.. أنا لا أفكر بالانضمام إلى أي كيان، ولكن ما رأيك لو قلت إني أعرفك بالذات وأعرف أنك وقعت بحبها خمس مرات، وبنطالها كاد أن يورثك الجنون، اندفعت بقوة للإمساك به، إلا أن الأبواق الزاعقة لم تمهلني، اجتاحنا الجند في لحظة نحس، وسرت تلك الحمى التي تمتلك الكلاب حين تنقض على صيد، فرقونا بعصي كهربائية مشحونة، أطلقوا عيارات في الهواء، والرجل ذو السترة الواقية يصيح بمهنية عالية: انفجار، يتبعه حريق. وتبول عليه عربات الإطفاء، وأخذوا يبطحون الناس ويوثقوهم بشريط.

ركضت، وركض الخلق يسوقهم الخوف كأنهم في مدينة على وشك السقوط، كانت الشمس ممزقة والهواء ساخن والشارع يجري من أقصاه إلى أقصاه.

شهادة لا تعلو على جدار

هناك دائماً مفاجآت لا نتوقعها تتقاطع مع الأحلام، وتحول نهاراتنا ولياليينا إلى كوابيس، مازلت أذكر ذلك اليوم عندما هرعت إلى دارها ووجدته خراباً وقد تداعى سقفه حتى لامس الأرض، كان أنقاضاً والناس يتفرجون، وقتها أحسست بشعور غريب وأنا أنظر لذلك الحشد، وخمنت أن بعضهم يشاركني العزاء، إلا أني تساءلت لماذا يتجمع الناس دائماً بمحاذاة الفواجع؟!!

عرفني أحدهم وبدأ كالممسوس يكرر كلاماً متلاصقاً، ومن بين عبارات دامعة علمت أن أختي نقلوها بعربة (هامفي) داخل كيس أسود من البلاستيك وزوجها حصل على ضماد ونقلوه بعربة إسعاف، ربما يكون قد مات. ولما سألت عن ابنها خليل، لم يدلني أحدُ عليه، نقلت خطاي إلى حيث اللامكان، أمشي ويقودني الخوف، أمشي وتتفحصني العيون، تعثرت بين الأنقاض، وقفت فوق الخراب لسبب لا أعرفه، وأنا في حالة ذهول، ولا أدري كيف انشقت الأرض ساعتها وظهر خليل ورمى بنفسه عليَّ. وحتى هذه اللحظة لا أدري لماذا لم أضمه، ووقفت كالتمثال، ربما أردت كما أملى عليَّ عقلي الغائب أن أكون صلباً وغير منجرف وألا أتداعى

أمامه حتى لا يُجن الولد أو يـصاب بانهيـار، وبعـد تلـك المرارة ندمت أشد الندم، ولو قدر لي أن أعـود إلـى تلـك الخيبة لأخذته بين ذراعيَّ واحتضنته وواسيته كما يجدر بي أن أواسيه، وأحياناً أعزو تحجري إلى حالة الذهول، لأنـي ساعتها كنت بحاجة لمن يواسيني لا لمن أواسيه. هي أختـي وكانت بمنزلة الأم التي حرمتني الأقدار من دفئها منذ كنـت يافعاً، كانت تنتظرني عندما أعود من المدرسة حاملاً كتبـي وتستوقفني بلهجة من يصدر أمراً لأغسل يداي ووجهي من الصنبور، حتى إنها أصرت بعـد ذلـك أن اخلـع حـذائي المثقوب قبل دخول البيت كيلا يدخله الجـن، لأن الجـن لا يدخل إلا من الثقوب، كان حذاءً رياضيا نوع (باتا) ولم يكن متاحاً لكثير من الطلاب، كان مميزاً لولا ثقب العادة الذميمة التي كنت أرتكبها وأنا أركل ببوزه كـل حجـارة أو علبـة فارغة تصادفني في الطريق، لقد طمرت هذه الذكرى، لكنها عادت بقوة ترفع رأسها الآن، إنها إحدى حالات اللامعقـول عندما نرتد في ساعة يأس لنتذكر شيء لا يخطر على بال.

"البقاء لله" قال أحد الجيران، يبدو أنه يعرف تفاصـيل كثيرة مازلت أجهلها، قال آخر "كلنا لها" إلا أن عباس زميل خليل في الجامعة وصديقه الحميم لم ينحاز إلى أي منهمـا، ولم يضف شيئاً، كان بإمكانه أن يقول "الدنيا منزل رحيـل" لكنه لم يقل، ومال نحوي ليسحبني من ذراعي إلـى آخـر منزلٍ من منازل الدنيا.

عبرنا مسرعين أمام نقاط التفتيش بسير غير معهـود، كان منظري ومنظر ابن أختي ووجوم عبـاس، ودموعنـا

وعيوننا جواز مرور، لا أريد أن أصف كيف وصلنا، لكن وصلنا بهذه الحال إلى مكان لا أعرفه ولم أشاهده من قبل، قدرت أن عباس على معرفة طيبة بالمكان وقد راجعهم من قبل وتعثر بين العناوين، ومازال يعاود مصلوباً أمام الصور المجهولة لعله يحظى بأخيه المفقود.

وعلى غير موعد لفنا غبار أحمر ونحن نلج المكان، طوحت الريح بأغصان الدفلى فتعثرنا بها ونحن نغذ نحو المشرحة يقودنا عباس.

رأيت الناس متكئة وعيونهم دامعة وبعضهم ممسك ببعض، تناهى لي دوي من بعيد، نظرت إلى السماء فكانت صدئة، وبعد خطوات عجلى وجدت نفسي في قلب المكان، غشتني مصابيح مربوطة بزرد مدلي كأنه جزء من السقف المتين، ولا أدري كيف زاغت القذيفة وأنا أنظر لحظتها إلى الموتى من خلف الزجاج، ولم أعبأ بصوتها المرعد ولم أخشَ أزيزها حتى وإن سقطت فوقنا كما سقطت على أختي وهدت البيت.

أشفقت على التوابيت المهملة في الممرات المكشوفة والتي سيسيل ترابها الأحمر ولو هطل المطر في ذلك الوقت. عدت ثانيةً أمد نظري إلى الغيوم فتلكمني شعور غير مألوف كما لو أني أدخل أحد التوابيت طواعية ويغلق علي الغطاء.

سقط المطر، أو هكذا خيل لي وانساحت ملوحته على طرف اللسان، رأيت حباته سابحة في عيني خليل الدامعتين وأنا أنظر إليه بحزن.

"عندما تُخدع العين ينخدع الإنسان كله" حكمة صينية تذكرتها وأنا أتابع ذبابة ممتلئة تطير في أجواء القاعة، وقبل أن أجد تفسيراً للأشياء الخادعة، سألت عباساً عن سر أجنحتها اللامعة وكيف نمت بهذا اللمعان غير المألوف دون أن تباد بمرش.

أجابني ببرود "أنها ذبابة الموتى"

في الحقيقة أنا لم أسمع بهذه الذبابة ولا أعرف عنها شيئاً، إلا أني قرأت عن فراشات الموتى، التي تطير وتحط في الأماكن الأبدية فوق أولئك الذين كانت لهم رغبات ووئدت. إنها إحدى حالات التعويض عن الأحلام المبتورة كما يقول (مارتن موزيباخ)(١).

إنها فراشات ملونة لا تشبه غيرها، تخرج من أفواه الموتى لتحط على صدورهم وتبقى لفترة ترفرف فوق القبور ثم تموت، وقبل أن أجد خيطاً يربط بين فراشات الموتى وذباب المشرحة، وجدت نفسي أمام (كاونتر) صقيل، وبلا مقدمات سألني شخص لا أعرفه يرتدي مريلة بيضاء ويجلس خلف حاسوب، لا أدري لماذا خصني بالذات، ربما لارتعاشي ولشعري المقصوف، إذ بدوت وأنا ألبس المصاب أكبر من عمري بأعوام.

سألني عن زمن الحادث.

---

(1) كاتب ألماني صاحب رواية بيضة الحمامة.

- أفدته كيف حامت المروحيات تطارد رجلاً يقال أنه يحمل على كتفه جهاز (ستريلا١) وهو من الأسلحة المضادة للطائرات، وأطلقت إحدى المروحيات قذيفة عليه عندما كان يلوذ بالسياج وهدت البيت.

نظر إلي بعينين قلقتين وقال:

- لم أسألك عن نوع السلاح، ولو استدرجتك عن رقم آخر مضاد للطائرات كنت ستدلني على (ستريلا ٣)، وما دام النوع لا يعنيني والرقم لا يعنيك لذا أرى أن تبقى بعيداً عن دائرة الشك، أرجو أن تركز معي، سؤالي: عن ساعة الحادث، كل شيء مدون هنا، وأشار إلى الحاسوب، وبعد لحظة صمت أضاف: لا تخف إنه إجراء روتيني، ولا يهمنا سوى الوقت، إنه العقدة الحاكمة بكل الخيوط.

تداركني عباس موضحاً: في الصباح وكالعادة غادرت عند الثامنة إلى الجامعة يصحبني خليل، وتركنا الزقاق ساكناً كما لو كان في رقاد، وعند العاشرة تلقيت اتصالاً فأقفلت راجعاً على الفور، وجدت البيت معزولاً بشريط أصفر، لكنهم لم يتعسفوا، وقد أتيح لي أن أرى أبا خليل وعروقه النابضة بالدم، يقال أنه مات في العربة ووضعوه داخل كيس، أما أم خليل وطبقاً لرواية الجيران فقد وضعوها منذ البداية.

أخذ خليل يضرب على رأسه بقوة، حاولت الإمساك به وحاول عباس، ساعدنا متطوع لا أعرفه وطرحناه على الأرض.

قال الرجل ذو المريلة البيضاء مدارياً:

- ماذا عن أصل المصيبة .. أعني الرجل الذي كان يحمل سلاحاً ولاذ بحاجز القدر؟ "اختفى" قال عباس.

"لا بأس" كلمة محايدة أطلقها ذو المريلة البيضاء، وخصني وكأنه ينظر إلي من ثقب صغير

- تأتي غداً ومعك البطاقة التموينية، وهوية الأحوال المدنية، لاستلام شهادة الوفاة.

- قلت: ما جدوى هذه الشهادة؟ .. ما عاد لدينا جدار لنعلقها عليه. أجابني إجابة العارف:

- إنها الشهادة الوحيدة التي لا تعلق على جدار، إلا أنها من الأهمية بمكان، كل شيء مرهون بها يا أستاذ، لن تدخل المقبرة بدونها، ولن تنفذ من بين نقاط التفتيش، ولا أريد أن أذكرك بأعدادها التي تناسلت في كل مكان، ويقيناً بدونها لن تحصل على ميراث.

- عن أي ميراث يتحدث هذا، دارنا في مكانها منذ عهدها القديم، أو كما كان يحلو لأختي.. منذ أيام مجدها التليد.

عندما فكرت ببيعها رفضت، وحين فكرت بهدها، قالت، ومازلت أذكر قولها "بيت العائلة لا يهده إلا عاق".

لم تطاوعني على تأهيلها وتذرعت بكونها مسكونة وتخاف علي من الجن، وأعادت حكايتها القديمة عن الشبح الرابض في الدهليز وعن الساق التي تصعد وتنزل لوحدها في ليالي الشتاء، كان من الممكن لو لم أتعثر معها أن أغير دهاليزها وأمدها بلمسة ساحرة تطرد الجن، وعندما قلت لها

أني لم أرَ أحداً منهم كل هذه الأعوام، ولا بد أنهم رحلوا وإلا كيف عشت وتحركت وأنا محاط بهذه الأعداد المترصدة لإصابتي وإيذائي حتى وإن سكبت ماءً في أحد الثقوب وإن كان من غير قصد، أو تصرفت بعدائية إزاء قطة سوداء، لكنها أصرت أن أحدهم مازال مختبئاً، هم هكذا حين يرحلون يخلفون من يحرس الدار.

كنت أعتقد أن أبا خليل يخاف الجن، واكتشفت أنه يخاف أم خليل، وأنه خالٍ من الطمع وليس كما كنت أظن.

تساءلت إن كانت هذه الشهادة سترفعني إلى رتبة عاق!.

يبدو أن الرجل قد وظف خبرته، واعتبر حالتي تستحق الاهتمام، لذلك مد صوته لينتشلني حين قال:

- إنها أهم شهادة تحصل عليها في آخر المطاف، ولأسباب لا موجب لذكرها فقد أضيف لها شيء يمكن اعتباره (طيف) أو صورة مموهة لخيال ما يطبع على أوراق النقود، إنها مذهلة عندما تضع خلفها المصباح، وبوسعي أن أضيف دون أن أخدش مهنيتي، أنها لا تخلو من رموز مشجعة لمن يريد الخلاص.

- هل يريد هذا الرجل أن يغريني بشيء؟ إغراء الفاجعة يتلون مع الوقت، في الصباح كنت أحبذ الأسود، والآن تخليت عن ربطة العنق، كنت سأظهر بربطة سوداء تليق بالفاجعة عندما أقف وسط العزاء متطلعاً بالوجوه.

نظرت إلى الأعلى مدارياً دمعة، شاهدت ذبابة الموتى طليقة، تابعتها، حلقت فوق عباس، ثم فوق خليل الذي مازال ممدوداً على الأرض، حامت بلا صوت، حامت صامتة، عبرت عن نفسها، فأدركت سر التصاقها بالموت.

اعتدل الرجل بجلسته، يبدو أنه متعدد المواهب وقادر على قراءة الأفكار، سوى ياقته السوداء - (فاتني أن أذكر أن مريلته البيضاء كانت بياقة سوداء) وقال:

- أرجو أن تقدر ظروف العمل، كل هؤلاء في الطابور ينتظرون عزيز - أعني الشهادة، لا فرق، أي منهما يعني الآخر، إجراءات التسليم ميسرة، ويمكن أن تستلم عندما تعود في الغد، وتابع الرجل ... هذا هو النظام، وأني أحيي فيك روح العراق الجديد، كان على وشك أن يضيف عبارة أخرى عندما سرقه الرنين، فمال ليقرأ اسم المتصل مضاءً، وخيل لي أنه ارتدى مريلة أخرى غير التي يرتديها، خمنت أن سيدة ما على الطرف الآخر، وعجبت كيف استطاع أن يحلق معها بمستويات مختلفة وهو جالسٌ بمحاذاة القدر، ولما ضرب موعداً، لم أعد راغباً بشد نفسي إلى مزيد من الفضول، وقررت ترك المكان.

تردد الصدى وتداعت خطانا ونحن نعبر القاعة العارية، وبيننا ما يشبه الاتفاق أننا عائدون في الغد، وقد يتساوى حدسنا فيما نبحث عنه، إلا أننا لا نتساوى بقدرتنا على الصبر.

مَنْ يصحح الليل؟؟!

قرب الملوية في ضحى العيد، صوت المطبق يجـذبك من بعيد، فتغذ خطاك بملء رغبتك إلى دائرة بـدأت تلتـئم هناك.

الدبكة في الوسط والنساء بالملاءات اللف بعض علـى بعض التصقن باشتياق.

لا غرابة أن يسرقك شاب اعترته نوبة فـرح ليرمـي نفسه بين الدابكين، من حلقة الإحاطة إلى هلال الدبكة يتعالى الصفير، ويعدو بين بريق العيون مخدراً مفروط الخطى، وقد تطلق إحداهن زغرودة تشجيع.

الأقدام تتبادل مواقعها على إيقاع الطبـل ذي الـدقات الداعية، الأجساد تنحني ثم ترتد لتستقيم، والحركة في تتـابع كأنهم يمسكون مجاذيف، تشابكت أكفهم على نصف دائـرة، معتمر وحاسر، يتقدمهم الرأس ممسكاً بالمنديل، يلف نصف لفة ثم دورة كاملة، يضرب الأرض بشدة ويقفز في الهواء.

لا أعشاب موسمية ولا أوراق شجر ولا حتى ديـدان، أرض علا غبارها بفعل أحذية جديدة... هي أحذية العيد.

وحتى لا يتمرغ (الشرف الرفيع)، أصبح من تقليد الدبكة أن تضغط على عقال الرأس حتى لا يطير.

لكنه طار قرب مئذنة الله، وانفرط عقد الصهيل وضاع بين تضاعيف صباحات حزينة، وتبدد مع هسيس الريح.

كل من جاء إلى ساحة الضحى رجع مقهوراً، انتهى السجال، شطب الزمن، غلقت المقارنة بين الأبيض ونقيضه وبين أيهما أقدر على الوصال.

بدأ الهمس عن الرغبة بهدم الملوية لتصحيح مراقيها وجعلها تلف حيث تميل الريح، وإعادة تسطيح ساحة جديدة تليق بعزاء الوافدين.

مشهد الجسر مع الذكريات كصرخة حنين في مساءات القلب الموجوع، صوت الرصاص يلامس الإيوان، كبرياء المدينة، يتربع على الجرف، الشمس منحدرة نحو المغيب، في لحظة امتزاج اللون تظهر مئذنة الملوية سامقة في السماء. متناغمة مع القبة المذهبة، تغرد لها، تضمها، تقرأ الأدعية.

انقطع الصوت، امتزج عطر المدينة مع نسائم صيفها، وطارت فراشات شاطئها محلقة فوق الجرف الضنين بالخضرة، الواسع في العطاء، تحوم حوله، وقبل أن تلامسه، أربكتها دفقة أخرى فتشتت فزعه وتلاشت بين الكهف والصخور.

الأشباح غائمة، ترتجف من بعيد، الدبابة مازالت محشوة في الشريان حتى بوابة القلب، والصدمة القاتلة تأتي

مع اهتزاز الأرض، الكل في الانتظار واللاعودة كـــالجرح المفتوح على تضاريس الجرف.

عند حافة الشاطئ تتحـــسر الأمـــواج وتعـــود برتابـــة متكسرة حول الذكريات، راشحة مبتلة برذاذ، حملهـــا زورق خشبي غص بالجالسين تحت فيء النسيج الأفقـــي المربـــوط بالحبال، وقبل أن يلامس حافة الجلاميد يثب بخفة رجل قوي كنابض ارتداد، يمنع الصدمة بتلك النتوءات، ساندا الزورق بركبة صلبة كالرخام المنحوت، يسحبه، يركز مجذافه كمسند ومتكئ للهابطين.

هل يشط هذا (النيساني) بخياله بعيداً عندما يتكلم عـــن نعومة المئزر، يوم سقط بالماء، لقد هوت صـــاحبته علـــى ذراعه وكادت أن تسقط، لكنه تداركها فأمسك بعطرها ولـــم يمسك بمئزرها الحريري، فانزلق فـــوق ركبتـــه العاريـــة، وكرجل بدائي يقيم بين ضفتين لا زال يتألم من ذكرى تؤرقه كلما ركن زورقه وتعثر في ذات المكان وهو يتطلع بالوجوه لعله يراها بين الزائرين، ليكفر عن جهله، وكيـــف أربكـــه العطر وضاع بين ملامستها والحرير.

هبت نسمة رخية، حملت معها عطر الأيـــام، عـــادت المدينة إلى الوراء لتشكل الصورة وتلملم أجـــزاء الـــذاكرة، وصوتك ينادي بين بوابة الجسر والمنحدر، فاركض منـــدفعاً متعلقاً بكل تلك الملاءات السوداء واختبئ بين طياتها وألـــف في مزارات القبور.

أسر لي أحدهم إلا استخدم زورقاً نهريـــاً، فالقناصـــة يزحفون وراء القبة اللامعة، وخلف مئذنه الأجر السابحة في

السماء، البوابة مغلقة والجسر مغلق والأسلاك مبعثرة في كل مكان، ولوحة التحذير مغروسة هناك، في الذاكرة كان الجسر خشبياً ومفروشاً بألواح لها صرير تسمعه عند مرور العربات، أستطيع أن أشاهده وأتحسس روابطه الفولاذية، حتى صوت الماء، وارتطام (الدوبة) سمعته مشوب بإطلاقات عكرت نغمته المحببة، يمكن أن أصغي إلى صوته مشوباً. من جديد، رأيت وأنا أرنو إلى المئذنة أماكن أخرى، خزان الماء عند باب (القاطول) يتربع على أعمدة شاهقة كأنه جبل ينذر بالطوفان، والشارع الممتد إلى أول الجسر مرصوف بالحصى.

شاهدت خيط (المنطرد) ودربونة (البوجول)، حاولت أن أقوم برحلة مرتدة، بدأت زحفاً من باب السور متجهاً إلى منحدر الجسر... دائرة السراي هدت، تقابلها دائرة البريد والمشفى إلى اليمين والمدرسة الأولى إلى اليسار، هذه الملامح اندثرت فارقت المدينة، إلا أنها عادت بقوة، عادت بأسرارها من جديد، هي قائمة بالذاكرة منذ نصف قرن من الزمان.

عندما زحفت خلف مجدها، وجدت الحلم قد هرم في موقع وتجدد في آخر ولكن المدى مازال يؤطر تلك الصور التي كانت ذات يوم تعني الكثير، حافة الجرف وسط النهر تعود ويظهر العرقوب، كأنك بأمسية احتفالية بزفة عروس جيء بها من (الحويش) على فرس والذي يهزج ويطلق النار ابتهاجاً، مازال ماثلاً وحاضراً بكل حركاته، تساءلت: أين كان موكب العرس؟ ولماذا بقي بعيداً كل هذه السنين؟! لقد

ظهر عند المنحدر الممتد إلى بوابة الجسر والفرس ومن خلفها نسوة وأطفال، والذي يطلق النار ابتهاجاً كاد يعرفني لولا تداخل الأصوات ولولا الصدى المرتد من الجرف الصخري ورصاص أولئك المختبئين خلف التعرجات الجرداء.

وبقدر ما ساعدتني هذه الصورة على اكتشاف الذاكرة، فقد اكتشفت نفسي بلون وإيقاع وأحسست أن الأماكن بدأت تعرفني بعد أن هجرتها كل هذه السنين.

بين الفواصل المتأرجحة والأجزاء النافرة أمام اليافطة المعلقة تكررت المشاهد باقتحام شديد، دكان خليل على شكل زاوية حادة فتحه فرحاً بعد مد الجادة إلى الروضة العسكرية، الأماكن أبدلت وظيفتها، (البقجة) اختفت وبقي وشمها كندبة فوق بعير، دار أبو غني يحارب الزمن ينبئك عن عز غابر، الحاج كركم مازال يحتفظ بنظارته ولحيته الحمراء رغم أنه شيد طابقاً إضافياً معتلياً دكانه فريداً في منظره، يطل على ساحة الوافدين ذوي اللحى والذوائب الطويلة، نساؤهم في خدر مستكنات جنب النوق يتربصن الرحيل، حطب الرمث وزهر الشنان وبعر الإبل كل بضاعتهم في البازار المفتوح، ذلك المراح... ذلك المناخ.. يتحول إلى ساحة احتفال، وفي هذا المكان من كل عام يقام دولاب الهواء بأذرع الأخوين الأخرسين.

لا أدري أيهما كان أكثر حضوراً، كلاهما كان جذاباً حين يطالعك مبتسماً وهو يقبض (الأربعة فلوس) قبل أن ترتقي الدولاب الذي طال انتظاره لعام صحيح، كأن هذا

الدولاب العنيد لا يقام إلا في هذه الأرض ولا يدور إلا في الأعياد.

كانت فرحة عندما نتجه شمالاً مع الحافات الرملية الضحلة صوب الأعمدة الشاخصة لنعبر الجسر ونتسلق المنحدر يسابقنا الشوق إلى لون الفرح ودبكة العيد وطعم الحلوى ورائحة الكبة وخيط اليانصيب، كانت فرحة لو لم أكن محكوماً برغبة قسرية تسوقني إلى المدافن في الصباح، لم أهتد إلى الحكمة من زيارة الموتى في ذلك الوقت، كنت أتمنى أن يكون للحزن يوم آخر.

ارتفع الجسر، غادر الماء خارقاً قانون الجاذبية، لا قوانين في هذا المكان.

النهر خالٍ من الأبواب وغير خاضع للتناسل، أصر المترجم الواقف خلف نظارة سوداء على إثبات صلتي بالنهر، أشار إلى قائمة مطبوعة بأحرف بارزة تحمل أسماء المصرح لهم بالعبور، كأنها معدة لمكفوفي البصر، كان مجوفاً، خارجاً لتوه من رماد الفاجعة، يقف بوضع جانبي مخفياً شيئاً يود إخفاءه لدواعي التطرف، يرتدي صدرية كتلك التي كان يظهر فيها ساسة الحقبة الماضية، أتاحت لي أن أمارس لعبة التعري فتخيلته لا يرتدي سواها، وعندما اقتبسته عارياً فاجأني باقتحام. ولدواعي الذوق نظرت إليه من زاوية أخلاقية لإخفاء ما يمكن إخفاءه.

فترت أساريري، وكان من الممكن أن أشي بابتسامة أو أرسم شيئاً منها على ملامحي، إلا أن خيوط الرصاص أربكتني عند المنحدر لما تداعت وهي تلامس الماء.

عاد الجسر وسط النهر من جديد، الطوافات تـصارع الماء، تغطس وتظهر من شدة الموج، ورغم أن الوقـت لا ينذر بالطوفان، إلا أن الأرصاد رشحته لموعد قريب.

ارتبك الخلق وأخذ بعضهم زوارق العودة، وآخـرون استبدلوا الخنادق وراحوا يحفرون من جديد.

كان رائعاً مشهد الماء والأسـلاك الوتريـة والـرذاذ المتكسر مع خفقة جناح.

الطوافات كظهر حوت يشق الماء، هوى الجسر وسط لجة التيار العارم، ما لبث أن انقطع سلك مجاور وجرف ما تبقى من رصيف، دفعه السيل بسرعة مذهلة، انحـدر مـع المجرى العاتي، لا أحد يعلم إلى أين؟!.

إنه مجرد حلم كان قائماً في لحظة وتلاشى...

امتزج الأزيز المتقطع بصوت ثقيل، تكـاثف الـدوي والدخان.

باب الجحيم قريب من باب السور، والطريق سالكة إلى "سانتا كلارا" المترجم يصر على اعتبار الإجراء روتينـي، المنظر نابض بكل حركة وعنفوان، وكل من جـاء يـشهد النهر النافر يقف مندهشاً، الجسر تقطعت خيطانه الفولاذيـة وتناثرت أسلاكه وعصفت بها الريح. الأباتـشي كـالوحش الهائج، انساحت سخونة لزجة، وخـارت قـواي، وحملنـي صوت ينادي من بعيد...

من يصحح الليل؟؟!

من يطلق الفرسان؟؟!

من يعيد الفرح وينصب الدولاب في ذات المكان؟؟!

الثور

رغم أن الوقت لا ينذر بالطوفان إلا أن الأستاذ مشعل المسكون بسحر المدينة وابنها البار قد غمس يده بماء دجلة فوجده يسري كالتيار ويخفي تحت سطحه وجهاً آخر غير الوجه الذي نراه، فشحن نفسه بحس تراجيدي وأبدع هذه اللوحة التي تعبر عن موسمه الروحي في زمن الطوفان.

لقد أرخ النهر بديناميكية واسعة.

سألته عن سر اهتمامه بهذه اللوحة، أجاب:

- هذه ذاكرة المدينة، إني أسجل هنا أشياء كثيرة، هذا الثور الذي يغالب الموج لم يكن موجوداً، حين ارتفع الجسر وغادر الماء، إنه جزء من خيال، وظفته في لحظة حرجة، لأمنح اللوحة، بعدها غير المنظور.

إنه توحد غير عادي وحالة إبداع في لحظة انقطاع الأمل بين الضفتين، جاء ليوطد العلاقة بين الماضي والحاضر، واستطاع بهذه القرون التي لا تعدو عن كونها استعارة رمزية أن يهزم الإحباط ويرتقي بالحدث إلى واجهة المفاضلة بين الجسر واللاجسر.

عندما تنظر إلى اللوحة كمشهد متكامل، وقبل أن تدقق بالتفاصيل تشعر بوحدة الموضوع من خلال لغة الإحاطة

التي لا تحتاج إلى تعريب، ولكننا نحتاج إلى مزيد من الثقة حتى نقبل بأشياء أخرى من ضمنها هذه القرون التي جاءت كمصادفة غير معلنة بدت عصية على الترويض.

أيعقل أن يكون ثور مألوف وله مثل هذه القرون؟!

- انظر.. تلك أطنان من مادة (الطفو)[1] كان يجمعها الناس، انشغلوا أياماً. بجمعها قبل أن تحل الكارثة، وعندما حانت تركوا كل هذه الأكداس خلفهم واتجهوا إلى الماء، يرقبون الجسر الذي لم يعد جسراً، امتد نظرهم إلى الصوب الآخر وفي داخلهم هاجس النزوح.

أما الذين هم على وشك أن يبلعهم الماء، ينظرون إلى المدينة، إنها مدينتهم، والى قبورهم التي هي قيد الانتظار، في ذلك المكان الذي يقام عنده دولاب الهواء كل عام، ولكن إلى أي مدى يمتد ثباتهم، أخشى أن يجرفهم الماء وتعلق بطونهم بجرف آخر، لذلك سعيت أن أقدم لهم هذه الخشبة، إنها طوق، لكل من لا يعرف فن العوم، وأنت تلاحظ كم عدد هؤلاء الذي لم يتقنوا الفن.

الواقفون عند بوابة الجسر سمعوا الأزيز فوق النهر، وشاهدوا الطوافات تغطس وتظهر من شدة الموج، أسلاكها مشدودة، ترتفع وتهوي كالسوط فينفرط لها خيط طويل من الرذاذ، والثور فاغر فاه، خواره يتجاوز إطار اللوحة، ليس

---

(١) (الطفو) هو ما يجرفه الفيض ويحمله النهر من أشياء صغيرة طافية، عندما تلطي عند حافة الشاطئ أو بين الصخور الناتئة المتناثرة مع امتداد الجرف يجمعها الناس بغربال، وتجفف تحت الشمس وتخزن للطهي والتدفئة في الشتاء، ولها رائحة طيبة لان بعضها من جذور (السعد) التي تنبت حول الشطآن.

لأنه في (كوريدا)[1] المصارعة إنما لسبب آخر، إن نظرتـــه مشدودة إلى أفق السماء إلى الجــرف الــصخري المتعــدد الأسرار، إنه المكان الأكثر أمناً لـــه ولأولئــك الممــسكين بالقرون، وحتى هذا الجسر الذي تداعى لا يمثل حالة توزيع انتقائي، إنما هو ومنذ الضربة الأولى بهذه الفرشاة يمثل حالة توثيق لصورة الجسر في تلك اللحظة عندما تخلـــى مرغمـــاً عن سطوته التي كان يمارسها فوق النهر بامتيـــاز. قــد لا تكون فرشاتي ناعمة أو رقيقة، أو خدرة كما يقـــال، لـــذلك أعترف أن الغلظة بالفرشاة موجودة في هذه اللوحة والسبب هو الجسر الذي لم يعد جسراً كما كان.

انظر إلى المدينة المتربعة فوق الجرف، إنها باقية مـــا بقيَ الدهر، هل تتصور أن يبلغها النهر مهما كان معربـــداً، ذلك لا يمكن تصوره، وحتى الزلازل لا تطالها، الذي أعرفه إنها خارج بؤر الانهيارات الأرضية، هـــذا هـــو تكوينهـــا الجيولوجي ولم يسجل أنها تعرضت لهزة أرضية على امتداد عمرها الطويل.

دائماً تجد من يقول إنها تستمد سكينتها من مراقد أئمتها الأطهار، هي فعلاً تستمد هذه السكينة، ولكـــن لا أريـــد أن أتدثر بعباءة الدين، إنه خارج عن دائرة اختصاصي ولكنـــي لم أغفل الرمز.

تشاهد ذلك البعد المشرق الـــذي يمثـــل وهـــج القبـــة ومنارتها السامقة، وهي ملاصقة لمئذنة الملوية، وهي كمـــا

---

(١) تطلق التسمية على ساحة مصارعة الثيران في مدريد

تعلم غير ملاصقة، لكني أصررت أن تكون بهذا الانــدماج، ليس بسبب انتقاء مبتكر لزاوية رؤيا تفضي لهــذا المنظــر الحميم، ولكن الفكرة الأخرى بقيــت تنــازعني وأســهدتني طويلاً، وبعد عناء توصلت إلى تجاورها كتعبير عن الترابط الروحي القائم بين الشاهدين.

تبقى عين الثور كنجمة ساطعة معترضة جاءت خارج سياق الليل، وجحوظها يمدك بالمعرفة المطلوبة لتقدير حجم المأساة عندما سرى الفزع بين الناس حال انقطاع الأمل بين الضفتين.

كان المفروض ألا يكون له خوار، لأنه يمثــل القــوة والتحدي وقدرة الإله وبأسها الشديد وكان من البــديهي، أن يبقى متماسكاً وألا يخور لو رسمته بوجه إنــسان، والــذي يبرؤني من الزيف أني أبقيته بوجه ثور بري، وحتى القرون لم أمدها بطول إضافي، إنه الطول الطبيعي والحجم المقبول للثيران البرية، وإذا كنت قد رسمته بالأبعاد الحقيقية لثيــران تلك الحقبة من التاريخ فذاك التزام مهني للأسلوب الذي كان سائداً لدى عباقرة عصر النهضة في القرن الخامس عــشر وأولهم ليوناردو دافنشي.

ولو جعلته بوجه خليفة أو بوجه ملك وبقرون أخــرى كان يجب أن أتوّجه بقبعة، لأن كل الثيران الآدمية كانت بهذا الشكل، ولها مواصفات وجه الحاكم، وأغلبها يمثــل الملــك (سرجون) مرتدياً حلية ذهبية ترمز إلى الشمس.

وكان لزاماً أن أضيف له جناحين ليــصبح الحــارس الروحاني طارد الشر المعبرّ عن مملكة الرافدين.

الوجه الآدمي يمثل ذكاء الإله، وقوة الثور نعمة، ولــه انطلاقة النسر في الطيران، وهو أقوى المخلوقات التي تحلق في السماء، وكان من الممكن أن أزينه بحلية لتــشرق منهــا الشمس كما فعل الآشوريون بثيرانهم وأمدوها بهــذا الرمــز كعنوان للقوة الإقليمية التي تظهر السيادة مع العظمة.

ولهذه الأسباب كان يجب ألا يكون له خوار.

وقبل أن أسأله لماذا الثور، أضاف:

- الفكرة مأخوذة من البرية الواقعة شمال غرب ما بين النهرين، وكان الملوك يصطادونه، وقد ألهمــتهم صــورته الخلابة هذا الإلهام، واعتبروها رمزاً لقوة الإله، وأســبغوها على الملوك لضخامتها وحجمها في منطقة الكتفين مع بروز القرون الكبيرة.

لهذا نرى سرجون الأكدي الملك العظيم وقــد تقمّــص وجه ثور مجنح، أما الضعفاء فلم تتح لهم فرصة الــتقمص، لقد انشغلوا بقمع الفتن وكان بعضهم أشبه ما يكون بمتعهــد اضطرابات، لذلك لم يحضوا بمقاعد الدرجــة الأولــى فــي القاعات الواسعة ولا حتى بصور منقوشة على الجدران.

هذا الثور بلا أجنحة ولو كانت لأصابها البلل والثقــل ولــ (بازت) الفكرة كما أنه ليس له علاقة بالثور الإســباني لأنه كان سيعربد ونضطر لطعنه برمح كما يفعل الفرســان في مدريد وهو أيضاً بعيد عن راعي البقر الــذي ســاهمت السينما الأمريكية وصنّعته بالشكل الذي يعرفه الجميع.

إنه ثور عراقي جاء من شمال شرق المدينة وفـرض وجوده، وهذا الموج خياري المفضل، والعصف في لحظـة الحدث، حالة مدهشة ومغايرة للنكوص ورفض للنمط القديم، وهذا التمزق في الغيوم من متممات البؤرة الـساحرة التـي تعبر عن يقظة مترقبة لأحداث مازالت قيد الانتظار.

عندما يفاجئك الحدث تعيش المشهد بشجاعة، وتلامس هاجس التغيير، ليس على أركان الجرف والمئذنـة وقـصر الجوسق وكرد المعمار أو السوق القديم، إنما علـى أسـاس دورة الحياة، والمتطلعون بدهشة تتحـرر نفوسـهم وتتوقـد أفكارهم بالمعرفة التي هي موجة ذهنية لا حدود لها تملـك مقومات توظيفها لإعادة ترتيب اهتمامات المدينة من جديد.

عندما نظرت بإمعان مرة أخرى إلى اللوحة لم أعثـر على منمنمات بهجة، ولم أجد فرحاً يتوق للانطـلاق، كـأن الصورة تجسيد لمأساة واختصار لمسافات الانطباع، حـاول الأستاذ مشعل أن يمسك بخيوطها وهو يروض الثور، وأصر على التجاور عبر العلاقة الجمالية، لكن ألوانه جاءت غائمة عندما جمع ضدين، كان جريئاً إلا أنه ظـل حزينـاً مقيـد الخلجات التي لم تضف لإبداعه شيئاً.

ولما أحس بتلكئي في المتابعة، أعزا ذلك إلى الـدوي الذي عاد متقطعاً، وتركني ألتقط أنفاسي، وبعد أن أتاح لـي فرصة امتصاص الصدمة أضاف:

– إن استخدام الألوان بهذا التركيز قد يولد حالة مـن الانفصال، إنها حالة وقتية، وتعرف أيضاً بحالـة (الـصدمة والرعب)، وهو مصطلح جديد لا زال في طور الانتشار. إن

ساكني المدينة وكما تعلم ورغم طول باعهم على الجرف وأمسياتهم عند دجلة، لم يهضموا هذا التوغل الحاد، إنه مزيج غير ساكن، عندما تقتحم الصورة تصاب بحالة ارتداد غير منضبط، يستمد رفضه من الماضي المترسب في اللاوعي، لذلك تتصور أنه بعيد عن الحاجات اليومية وغير منسجم مع الإيقاع اليومي وخارج طبيعة البيئة التي أدمنت الأصفر كقوت يومي ولون أثير.

قلت له: أنا غير متحيز، وأنت تعلم بحياديتي، ولكن لكل طيف دلالته في عالم الألوان، حتى وإن جاءت مقتحمة أو متناقضة مع طول الموجة الدالة عليه.

وأود أن أضيف أيضاً أن الذي لم أجد له تفسير هو الشح في الأصفر أو التقتير، وحتى لو لم أكن في يقظة لا يمكن للحلم أن يتخلى وببساطة عن اللون الباذخ الذي ينبئك بالشروق الوشيك ويضعك أمام القبة المذهبة وجهاً لوجه.

أطرق الأستاذ مشعل ملياً، وبعد فترة صمت أجاب بهدوء:

– هذه القبة العظيمة هي قلب المدينة النابض ولا يمكن لأي فنان أن يخضعها للقياس وكونها مذهبة لا يعني أن تحتل مساحة اللون أو تحتكره على مدار النهار، هنالك تحولات عميقة طرأت على المدينة منذ أن هدّ السور الذي كان يحيط بها ويكبلها من أول الغروب حتى أول الشروق وكاستجابة طبيعية لهذا الحدث تشظت ألوان كثيرة ارتبطت بالتحدي عندما تخطت الخوف وانطلقت نحو الجرف.

وأكمل – هذا لا يعني أن تلك الألوان لم تكن موجودة لكن ظاهرة الإحساس بطيف اللون انعطفت وتشابكت مع الحدث ، ولا شك أن السور هو الحدث العظيم، الذي يوازي للجسر في دلالته عندما عصفت به الريح ، لذلك لا داع لاستباحة اللوحة بلون معين وحين لا تجد وجوباً ملزماً للتقنين عليك أن تترك للذائقة فرصة الاختيار ، ولكن ما عساي أن أفعل للاجتهاد الذي يُخضع اللون "للقاعدة والقياس".

أن لوحتي تعتبر انطباعية ، والانطباعية تعني تصوير العناصر المتحولة في الفضاء المطلق ، ومن أهم هذه العناصر هو الضوء ، ويحضرني هنا رائد الانطباعية (كلود مونيه) كلن مقرراً علينا أثناء الدراسة في معهد الفنون كأحد أشهر الفرنسيين ، فقد وقع (٢٨) لوحة سجلها في تحولات الألوان الضوئية على واجهة إحدى الكنائس ، وكان كل نصف ساعة يصور واحدة من هذه اللوحات ، ليعود في اليوم الثاني متابعاً العمل محققاً معجزة التزامن اللوني أن لكل لحظة في الطبيعة مقامها اللوني الخاص .

لهذا ادعوك لترقب القبة عندما يلوذ بها القمر في لياليه البدر، لترى طيف تلك الألوان التي لا تتاح لأي منا في النهار ، حتى الجرف يعتبر خارج القياس لأنه متعدد الألوان وضارباً بالتاريخ ومسكوناً بالأسرار ولا يمكن أن تحتويه بلمسة واحده.

أنظر لهذا الفضاء الواسع، إنه قبة بلا نهاية، استمدت من السماء لوناً يوحي بالإحاطة وكان من الممكن أن ألون

بالأصفر ليطغي على اللوحة ولكن، وكما تعلم أن بعضهم لا يهضمه، إنه مزعج لكثير من الناس، الأصفر لون المــوت، ولون الجدب ولون الخريف ولون معابــد الآلهــة المنــدثرة ويضاف له المكر، والخطيئة أيضاً ترتدي ثوباً بهذا اللــون وهو قريب للبرتقالي المثير للجدل والمحفز لمشاعر الكراهية والبغض وحين أقحمت كل الألوان كنت أسعى لتأسيس حالة طيف يتيح الاستمتاع بالصبغة الملموسة التي تحاكي الضوء.

لا تنس أن الثور مدهش، وهو بحد ذاته مــزيج مــن الألوان. وعندما سألته إن كان متأثراً بالفنان العالمي بيكاسو رد عليّ:

بأن بيكاسو ذاته في بداية تجربته كان متأثراً بالثيران، أنا لست متأثراً بالثور، إنما بما يرمز إليه من تحــد ظــاهر على شكل قرون.

بعد هذه المتابعة لم أكن راغباً بالعودة إلى الثور الــذي أعتبره إنجازاً جديداً، وأستطيع أن أجزم أنه كان يــود لــو ألصق به صفة العظيم، لكنه تراجع وترك ذلك لغيره حتى لا يتهم بالغرور.

وقف متحفزاً عند ذلك الأمل المعلق بين ضفتين غيــر عابئ بالأزيز الذي تشظى عند حافة الصخور وقال:

- الثور هو الخلاص الوحيد الــذي ســتمدنا قرونــه بالرغبة لمواصلة الإبداع، ولا يتحقق ذلك إلا بعد فك عقــدة (القرون) التي تفسر على أنها فعل ورد فعــل لحالــة غيــر أخلاقية.

إن الشكل الرمزي رسخ في أذهان طبقة واسعة من الناس صورة سلبية عن العلاقة بين الشرف والقرون.

إن صفة القرون في اللوحة صفة تجريدية ومن أول وهلة تشعر بوظيفتها كنتيجة حتمية لهذا التلاطم وسط التيار.

هناك تغيير نسبي بالأخلاق ولكن غياب المشروع العربي لتطوير مدلولات المفهوم حال دون الإفادة من هذه الفرصة، وأني أطرحها هنا بقوة من خلال تقنية الشكل.

لدينا أعداد كثيرة من الباحثين بموضوع الشرف، حتى إن أحدهم ألف رواية من ٥٧٠ صفحة تحت هذا العنوان[١]، وهو موضوع واسع وله تفرعات، لكن فرع القرون بقي أسير للمفاهيم والمصطلحات القديمة، والنجاح الذي تحقق في هذا الفرع جزئي قياساً للنجاحات الأخرى.

في كثير من صفحات التاريخ قرانا عن ملوك يضعون على رؤوسهم قروناً بدل التيجان.

- لماذا استعاضوا عنها في الوقت الذي كان التاج في متناول أيديهم، لاشك أن للرمز دلالة عظيمة ويحفز على مقارعة الخطوب.

مما يدعو إلى الحزن أن بعضهم مازال أسير عقلية موروثة عن قصص آسيوية قديمة ساهمت حكايات الجدة بتهويلها وحولت القرون إلى نوع من العار. وإن شئت الدقة إلى رمز للعار.

---

(١) (شرف) رواية من تأليف صنع الله إبراهيم – دار الهلال – القاهرة – ١٩٩٧.

بالتأكيد لم يكن لهن اطلاع بالأغراض الشعرية، ربما لا أحد منهن سمع بـ(علي بن الجهم) – الذي قال للخليفة:

– إنك كالتيس في قراع الخطوب.

والخليفة هنا يفترض أن تكون له قرون وإلا سيهزم.

وعندما نتكلم عن الخطوب، نتذكر الإسكندر، ذا القرنين، كانت له قرن واحدة، ومع توسع فتوحاته أضاف قرناً آخر، ليس للتوازن، وإنما لتوثيق صولة الانتصار.

قلت له:

– هذه مشكلة في نظر البعض، كان يمكن الابتعاد عن تعقيداتها ونرسم الثور بلا قرون. أو بقرون قصيرة. أو نتلاعب بالأسلوب ونقدم قيم القرون بطريقة معاصرة بعد الاحتلال.

– كلا، الثور هو خياري المفضل والقرون جزء من هذا الخيار، وإني لم أمد القرون بطول إضافي كما أسلفت والإمساك بها يمثل انطلاقه بلا حدود للخلاص من الوهم المترسب في الجذور وعندما نتعامل مع الأفكار بدون قيود يمكن أن تستخدم كل الأدوات بروح التجديد وتتلاشى الحدود بين القرون وجسم الثور وبين أيادي وأجسام الممسكين بطوق النجاة.

حاولت الابتعاد قليلاً عن الثور، سألته عن تلك الإيماءة التي تلوّح بها فتاة تركت الجرف وهبطت إلى الماء.

هذه الفتاة لها احترام كامل لعمقها النفسي وشخصيتها القوية.

- وهذا اللون، سيساعدنا على وضع تصميم مبتكر عند إعادة بناء الجسر، بتقنية تليق بالمدينة وعصرها الجديد، انظر لأولئك الفتيات فوق الجرف، اللواتي انتحين جانباً يرقبن المشهد بكثير من الاهتمام الممزوج بالخوف. إنه اهتمام خاص بهذه اللحظة عندما فقد الجسر امتيازه واختزل حالة الانتظار.

كل الصور غائمة عندهن، رغم الاتساع الممتد بين ذراعين، إنهن يفكرن بنمط مطابق لرغبة الأنثى التي تتمنى أن تخطف على ظهر حصان، وإذا لم تستنجد أي منهن لحد الآن فذلك لأنهن يعتقدن بإصرار أن الفارس بات وشيكاً وسيأتي من هذا المكان.

رغم أن الأستاذ مشعل لم يتعلم الكثير من قاعات الرسم في معهد الفنون إلا أنه تمكن أن يطور ما في داخله ليرتقي إلى هذا الإبداع الذي أسبغه على الثور.

في تلك اللحظة عدت مستدركاً لأسأله عن الفتاة التي ترتدي لوناً برتقالياً وهبطت إلى الماء، وقلت:

- كيف تفسر لونها الذي هو لون من ألوان سجن (غونتانامو)؟!

نظر إلى الأعلى، هو دائماً ينظر إلى الأعلى عندما يريد أن يضيف شيئاً جديداً، وقال:

- تقصد رداءها البرتقالي؟

- نعم... هو ذا بالضبط.

- يمكنك أن تقبلها بصورة أخرى... كفتاة هولندية مثلاً، جاءت لتشجيع الفريق... هذا ممكن أيضاً، بصراحة مضافة إني تعمدت البرتقالي لدلالته التاريخية والسياسية وانطوائه على إيحاءات دينية أيضاً وكثير من الأحزاب تستمد دلالاتها من هذا اللون.

الخليفة

عندما زارني الأستاذ عبد الرزاق البدري واحتل مقعده الأثير جوار النافذة، سرقته عناوين كتب وأوراق مكدسة من غير ترتيب، كنت قد تركتها على ظهر منضدة واسعة، زرعت قوائمها وسط بلاط عاري، خمن وهو يجول بنظره في الزوايا. أن خطباً أصابني أو أن شيئاً غير مألوف قد حصل في هذا المكان.

كان ذلك واضحاً من حالة الدهشة والإشعاع الذي مازال مرتسماً على ملامحي، والذي كنت على استعداد لبثه بكل التفاصيل، وإن كانت بعيدة عن التصديق، بدأ الأستاذ البدري راغباً للدخول ولو من شق باب خلفي، لسبر ذلك الشيء غير المرئي بتلك الفراسة المشهودة له والتي عرفتها عنه منذ أن رست صداقتنا على الجرف المتين، ولما خمّن أني على أعتاب حكاية تشابك سرها، تجهم بصمته، ثم انفرط منبسطاً، ليس بقصد إشاعة البسمة، إنما أراد أن يدفعني مشجعاً لأبدأ الكلام، وفاته رغم فراسته أني لحظتها كنت مستعداً للبوح دون تشجيع.

حين ترقب متلهفاً، استهللت متداركاً مغادراً مساحة الصمت وبدأت بتلقائية حسدت نفسي عليها وقلت:

- يسرني يا أستاذ أن أقص عليك حكايتي من بدايتها، عندما شعرت بسحر المكان حين زارني (المتوكل).

جفل الأستاذ البدري كالملسوع، فأشحت عنه، لأني أعرفه حق المعرفة، فهو لن يفكر بمجادلتي، لكنه سيخصني بنظرة إشفاق، لذا تجاهلته دون عناء وواصلت.. لما زارني (المتوكل) في ليلة أدركت الهزيع، لم أعرفه بادئ الأمر، كان يرتدي قميصاً بياقة منشاة تحتكم بعقدة يتدلى منها شريط حريري ويضع قدميه داخل فردتي حذاء جلدي من النوع الذي تنتجه مشاغل يدوية بناءً على "طلب" سابق وأصحاب هذه الرغبات هم عادة من رؤساء الدول والملوك.

لقد سبقه عطره لما انساح عبقاً وملك أجواء المكان، أقصد أجواء هذا المكتب، الذي لجأت إليه لتدوين همومي التي بدأت أروضها داخل الأدراج وأغلقت عليها منذ زمن ليس بالقريب، عندما أصبح همي ملاحقة الخطيئة والبحث عنها بين صفحات كثيرة طواها النسيان، لإعادة قراءتها بروح التجديد، لم أكن انتقائياً وجاهدت بموضوعية وأنا أعبر السفر الخالد، وطالما وقفت متأملاً أمام مشوهات دونت بدس أثيم، وكما تعلم أن البحث الذي قطعت به شأواً لا يخرج عن طور الزمن عندما ازدهرت المدينة في عصره بعد أن آل إليه الملك.

أنا يا بدري وأنت على دراية بذلك، وسأسعى لإشهار مسعاي قبل نهاية هذا العام، وبعد تبويب الحكاية بالصفحات والكلمات سترسل عبر شبكة المعلومات.

ما زالت الدار الموعودة التي يفترض ذكرها تجلس القرفصاء وهي بحالة انتظار. لم أفكر أو أحتار، كما هو

حال غيري عند اختيار صورة الغلاف، لأن "الملوية" كانـت ومازالت ماثلة أمامي بكل هذا الحـضور، وقـد اسـتدعيت الفاطمي[1] فالتقط لها مائة صورة، كان يبدأ عمله مـن أول النهار إلى وقت الغروب مروراً بالظهيرة الحامية، حـصلنا على صور مذهلة من الممكن جمعها في (البوم) يعبر عـن الإبداع وجمالية المنظر الواحد عندما تتغير درجات الموجة تبعاً لمساقط الضوء، ابتداءً من الشعاع الأول إلى أن يتوارى خلف ذلك الكهف الطويل.

حقاً كان "الفاطمي" مبدعاً وصاحب صنعة، وشـجعته بإخلاص على إقامة معرضه الشخـصي مفتتحـاً موسـمه بصور الملوية تحت عنوان –مائة صورة في يـوم يتـيم– وعندما اعترض على كلمة –اليتيم– قلت له:

– إن الكلمة لها وقع خاص وأنا لا أتمنى له الوقـوف في الظل كحال أولئك الذين يستجدون العطـف مـستثمرين حالة الانقطاع، إنما فقط كنت أود شـد الاهتمـام، وإثـارة الفضول، كحال لقبك تماماً الذي لا توجد صلة تشدك إليـه، أنه مجرد خيال استخدم لأسباب خاصة من قبل أحد أفـراد العائلة عندما بدأ يخطط لتوسيع نشاطه، وقد سـرى الاسـم وتداوله الناس، ولم يكن أحد منكم مطالباً برده إلى أصوله أو تفسير دواعي الاختيار، لقد مضى هكذا حتى أصبح عنوانـاً مقبولاً للتداول كما هو الآن.

---

(1) مصور بارع وصاحب صنعة.

انبسط الفاطمي قليلاً وبـــدا مـــستعداً لهـضم الدلالـــة، وأضاف متواطئاً:

- كل المدن التي كانت تدور في فلك الإيــوان تعتبـــر يتيمة، وأسف لأنها منقطعة ولا أحد يعبأ بحالها الآن.

لذلك تركت له مساحة تأمل ليقرر ما يـــراه لإظهـــار مهارته كصاحب حرفة مشهود.

نظر إلي الأستاذ عبد الرزاق البـــدري وكأنـــه أراد أن يذكرني بعدم التفرع إلى مواضيع جانبية، لأنه يريد أن ينتهي من سر هذه الحكاية، لذلك طمأنته وواصلت:

- أعتقد أنك في قلب الحدث ومطلـــع علـــى رغبتـــي للمشاركة بهذا الكتاب التاريخي لسببين:

الأول: إعلاء شأن مدينتي، والثاني: إعادة كتابة التاريخ بشكل موضوعي بعيداً عن التعصب والانتماء، فقد قررت أن أكون منتمياً فقط عند تناول المأثرة والحكاية والنادرة وحتى الطرفة أو المفارقة ولكن انتماءً صادقاً للحقيقة المجردة بعيداً عن الهوى.

تعرف يا صديقي أني أنفقت وقتاً طويلاً وأنـــا أقلـــب وأنقب بين الصفحات حتى أمسك بالرصين المأمون، وتركت كل ثمرة خاوية جوفاء، ولا تنس أن كتابي قد أعددته وفـــي ذهني رغبة لرفعه إلى لجنة القراءة التي ستجتمع في إحـــدى الدول لترشيح أفضل النصوص واللجنة التي تـــشرئب لهـــا الأعناق وإن كانت تجلس خلف أبـــواب مواربـــة، إلا أنهـــا ستتيح لي فرصة الوقوف عند خط الشروع للمـــشاركة فـــي المضمار على جائزة الدولة، وهي كالعـــادة تعنـــون باســـم

شخصية سياسية، لا داعي لذكرها، وأنت تعرف أني لا أعير اهتماماً لمبلغ الجائزة إنما أطمع إلى إعلاء شأن مدينتي، وأن تتاح لي فرصة نشر الحقائق حتى أعري الأكاذيب التي بقيت على مر الأزمان تثير النفور عند وصف المدينة بذلك السوء المشين، ويعزي ذلك إلى أنها كانت (تسر الرائي) وبعد أن حل بها الخراب أصبحت (تسيء الرائي).

إن هذه المئذنة الحلزونية السابحة في السماء تسر كل ناظر وفي أي وقت من الأوقات، في الليالي الظلماء، وأثناء الزوابع والأمطار، ولو كانت عند شاطئ البحر كما هي الفنارات لكان لها شأن عظيم، ورغم بعدها عن وحشة البحر تشعر أنها مهابة وراسخة كالقدر المحتوم منتصبة بوقار والريح تجافيها خوفاً من مراقيها المتجهة إلى السماء.

أنا لا أذكر ذلك كتعبير عن حالة الالتصاق أو بسبب الانتماء، إنما هي حقيقة، ولو جئت في منتصف ليلة من الليالي الحالكة عندما تنأى النجوم وينهمر المطر وتبرق السماء ووقفت قبالتها في ذلك الفضاء الواسع، ستشعر بالقشعريرة تسري في بدنك وترتعش أمام منظر فريد يتجلى في ظلمة الليل ليعود بك إلى عمق التاريخ، كنت دائماً أتصور الخليفة يمد بصره من فوق حصانه قاطعاً ذلك الامتداد الموصل بين المئذنة والإيوان[١]، وهو ينظر إلى ملكه الذي مازال قائماً متحدياً موجات الاغتيال.

---

(١) يقع الإيوان في قصر الجوسق ويطل على دجلة ويعرف باسم الجوسق الخاقاني، كما ورد بمعجم البلدان.

نحن نمد بصرنا أيضاً وإن كنا لا نكترث فذلك بسبب التكرار، فعندما نمرق من أمامها لا نعيرها الاهتمام، وربما لا نفطن إلى أننا نقف إلى جوارها أو على مرمى حجر منها، لأن منظرها المغروس في الذاكرة مطابقاً لمشهدها الماثل للعيان، وهو جزء من نبض نهارات المدينة المتوجعة بين أضلع سورها القديم تسمعه كالوجيب أينما وليت وجهك في ذلك الفناء.

لم تتكفل البلدية يوماً بها. ولم تنظم لها زيارات في أوقات معينة على شكل مجاميع سياحية أو تعبر عن حضورها بالدبكة في تلك الساحة التي كنا نهرع إليها على وقع دقات الطبل أيام الأعياد.

كان من الممكن أن يحضر بعض مريدي المغني للإنشاد بهذا اليوم، ويمكن أن تظهر مواهب شابة، لكن ذلك لم يحصل، ولما كنت دائماً أشعر بالرغبة لإحياء شيء هو ليس بالغائب، إحياء شيء هو ماثل أمامي ولكن يحتاج إلى إزالة ما علق به من غبار، وتوجيه الأنظار نحوه حتى يبدو باسماً فرحاً مشرقاً مضاءً على الصفحات، غير تلك التي تطالعنا بشؤمها عندما نقلب الأيام، لذلك عدت إلى ذاكرة التأريخ، وفي منعطف مهم يتعلق بالسبب الذي حمل المعتصم إلى ترك ملكه والارتحال متجهاً إلى سامراء ليقيم فيها عاصمة جديدة. وجدت قصصاً كثيرة، والقراءة المتأنية للسيرة التاريخية تعزي سفره إلى أسباب سياسية، وأنه هرب بتاج الخلافة وإن شئت القبول هرب بعمة الخلافة إلى هذه الديار، على اعتبار أنه ظل الله في أرضه ووارث صالح

وأينما ذهب يتبعه الظل، وبعضهم يعزي هروبه لأسباب أخرى تتعلق بمحضياته اللواتي كثرن وانفرط عقد لياليهن، ولم يعد قادراً على المؤانسة بينهن إلا بالهروب، وهو احتمال يرجحه أنصار (فرويد). لكنه احتمال ضعيف، لان المعتصم رجل سيف، وأختار المكان لأغراض دفاعية، وهنالك رواية تقول إنه اختار المكان مصدقاً نبوءة راهب قال له (إن هذا الموضع يسمى سر من رأى وأنه كان مدينة لسام بن نوح وسيبنى على يد ملك جليل عظيم، مظفر منصور له أصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة)[1].

كنت أقف كما ذكرت في مفترق حرج عندما زارني المتوكل وكان من الممكن أن أقول لك – زارني "المعتصم" ولكن أقول الحقيقة وأنا أعرف أنك منكرٌ كبير، ولكن لا بأس أن تسمعني حتى النهاية، وأملي ألا تبتئس عندما أعود بك إلى ما كاد يطويه الزمان.

أقول: لقد جاء المتوكل بتلك الصورة التي وصفتها وأخذ يقرأ الأسطر الأخيرة، ثم الصفحة ما قبل الأخيرة ولم يبد عليه الاستياء، كان منسجماً، إلا أنه رغب أن يضيف معلومة حين قال: عندما خرج (المعتصم) أول الربيع كعادته جهز موكباً عظيماً، ليس كمواكب المواسم الماضية عندما يعود بعد أن يقضي ليلة واحدة في العراء، كانت راحلته في موسمه هذا قد أعدت لسفر طويل وصحب وزراءه، وأضاف لحاشيته خدماً وغلماناً وخيولاً وكلاب صيد، وبدا مجهزاً

---

(١) معجم البلدان لليعقوبي.

تجهيزاً حسناً كأنه ميمم وجه بلد بعيد، وبعد ثلاثة نهــارات وحول موقد واسع أعد لشي الظباء، بات ليلته في "القاطول".

والقاطول – هو منطقة مازالت تعرف بهذا الاسم لحــد الآن وهي موطن الشيح والقيصوم[1] وشقائق النعمان، وأنت تعرفها جيداً وتقع على الجرف ومن تحتها المجرى، تــسمع صوته ويتكشف النهر كلما تقدمت نحو الصخور، ويغريــك منظرهُ بالإقامة إلى أمد غير منظور، تتخلله مــسارب إلــى النهر مليئة بعيدان "الطرفة" والخضرة بادية والموج الــواني يرقد بين الأغصان.

في ذلك الوقت كنت أتابع سفره الميمون الذي أوصــله إلى "القاطول" وقد لازمني القلق طويلاً وأنــا أتعقبــه بــين الأسطر لعلي أهتدي إلى سر من الأسرار وكنت مطبقاً على القلم كأنما هو جزء من أصابعي وأنا أكتب عــن القــاطول الذي لم أجد له نهاية، لكن أعرفه حق المعرفة وهو مــسجل حتى في شهادة الميلاد.

في كل مرة أضيف اسماً أو أحذف آخر لأعود ذاكــراً اسماً جديداً من تلك الأسماء التي مازالت قائمة فــي ذاكــرة المكان، وكنت على استعداد لترميم ظل الأشــخاص الــذين رحلوا والذين سيرحلون عما قريب، وقد طغى الوصف على أشياء أخرى وشمل الوجوه والحجارة والسور وما جاوره من تلال وكلاب مضطجعة في الظل تخلت عن النباح منذ زمن طويل، ولكن الخليفة الذي جاء مقتحماً هكذا وبدون مقدمات

---

(1) نوعين من أنواع الزهور الربيعية ذات السيقان الصلبة والعطر الأخاذ.

وهو بهيئته الأنيقة وعطره الأخاذ وربطة عنقه المنسوجة من الحرير إن لم أكن قد أخطأت، ابتسم لما استقبلته بترحاب، وكنت على استعداد لأقرأ له كل سطر كتبته وكل جملة انتقيتها وكل مهمل من حروف الجر وكيف تمكنت من إهماله دون أن ألحن أو أتخطى صنعة النحاة، وحتى الأسباب التي جعلتني أغير في تركيب الجمل لأكون قريباً من واقعة الفعل مواكباً لرحلته العظيمة وكيف شك السهم المنطلق كبد الطريدة وهي لاهثة في الفلاة هاربة من سطوة الحاكم بأمر الله، وعن كل غفلة من الزمن الذي مر وأنا في حومة القاطول اقتفي أثراً بعد أثر لعلي أدرك الركب.

ولما استمرأ الشواء ولذ له الماء وطاب له الهواء قرر حفظه الله أن يقيم بأمره عاصمة لملكه في هذا المكان.

تحفزت للإجابة عن كل سؤال وأنا أنظر إليه مبهوراً بوقاره ومهابته وسماحة عطره وبصره الغضيض، وشبح تلك الابتسامة المرتسمة على شفتيه، كانت ابتسامة نادرة من النوع الذي تتوقع لها أن تأخذ طريقها للبوح بشيء تتوق إليه.

فكرت لحظتها أن أقدم نفسي حتى يكون محرجاً ويتقدم ويكشف عن شخصيته، فأكون قد قطعت الشك وتخلصت من بعض الظن الذي بقي تحت غلال الإثم، منذ أن استباح خلوتي، لكنه فاجأني عندما وجدته يعرف اسمي وعنواني ورقم بطاقتي، وبالتأكيد يعرف عني أشياء أخرى كثيرة وإلا كيف اقتفاني إلى هذا المكان. لم يتسرب لي الخوف. ولم أشعر بالهلع، كنت مطمئناً لأنه جاء لوحده، وليس بصحبة مخبرين، حتى وإن كان، فذلك على عهد بعيد، وإذا استطاع

أن يطوع الزمن ويعود إلى المدينة، فالقوة الخارقة، أرغمته على المركب الصعب، وسرى بنفسه وحيداً ولكن بعزيمة أولئك الشجعان الذين لما كتبوا للأعداء بدؤوا خطابهم مستهلاً بـ(إلى كلب الروم).

وكما قلت لك، لم أشعر بالهلع رغم أنه باغت خلوتي في ذلك الوقت من الليل، وأنت تعرف الوضع الهش وظروف المدينة وحالة الاضطراب.

لقد قلت لك إنه المتوكل وقد تصاب بحالة كآبة عندما أصر على ذلك، أنا أعرف تماماً ماذا في داخلك ولا أستغرب إذا كنت تعتقد أن حالتي ميئوس منها. وإلا كيف أهذر بهذا الكلام؟

إنه الخليفة يا أستاذ، ولا أحد غيره، أما كيف عرفت، أني بصراحة لم أعرفه بادئ ذي بدء، هو الذي أفصح ببساطة وكان الأمر عادياً، وقال:

عندما تدلهم الليالي وتشتد الخطوب أرتدي الزي السائد للعصر الذي أظهر فيه، وإذا كنت تود معرفة سر هذه الأناقة، فمردها، أني المتوكل، ولا يمكن أن أظهر بأقل مما أنا عليه وقال لي:

وحتى لا يوسوس لك الشيطان وتتصورني منتحلاً، هات قرطاسك لأختم عليه.

كان الختم عبارة عن مستطيل نحاسي بحجم المبراة يعلوه حجر كريم وله غطاء سري، أزاحهُ جانباً وختم عليه.

وبعد فترة صمت قال الأستاذ عبد الرزاق البدري:

- أين الختم؟

قدمت له القرطاس، وقلت:

- انظر هذا هو الختم.

عندما أمعن النظر وجد ختماً بيناً وسط القرطاس الأبيض يحمل عبارة (بسم الله وعليه توكلت).

قال: يفترض أن يحمل عبارة (المتوكل بالله).

قلت: هذا لا يهم، إنه الخليفة ويختم بما يحلو له، لاحظ إنه بالخط الكوفي، وهو الذي كان على عهد ديوانه يوم ذاك.

يبدو أن الأستاذ البدري لم يصدقني حتى ذلك الوقت، وأن كان قد تابع على مضض فذلك لمعرفة السر الذي دفعني لسرد هذه الحكاية على مسامعه في هذا الوقت من الليل.

أعتقد أنه روض نفسه للقبول بدور المتلقي لحكايتي مشفقاً لما وجدني أرتديها حتى قمة الرأس.

لم أكن أعبأ بخياله وواصلت:

بعد أن ختم على القرطاس ارتفعت درجة الاطمئنان، لكن هاجس الشك بقي يراودني كما يراودك الآن، وأنا أعلم علم اليقين أنك تسيء الظنون.

قال الأستاذ البدري:

- لا بأس، إني راغب، ليس من باب الإشفاق، إنما أريد أن أعرف كما يقال "أين حط بك الرحال".

في تلك اللحظة شعرت أنه راغب بالإصغاء، كان ذلك مرتسماً على ملامحه.

إنّ شيئاً ما قد روضه للقبول، لذا أبديت حماساً مضاعفاً عندما لاحظته يجلس دون حركة أو إشارة أو نظرة تشكيك، ولاحظتهُ هادئاً مسترخياً بجلسته، فركزت نظري في المجهول وأنا أحثه على الإصغاء، وواصلت..

إن الخليفة الذي وضع خاتمه على القرطاس الذي رأيته الآن، طلب مني أن أترك هذا الخاتم كما هو، وقال: إنه لسبعة أيام ويختفي تماماً، لذلك عليك أن تبدي عزيمة مضاعفة لتنفيذ ما أطلبه منك، وبلهفة وحيرة سألني البدري:

- وما هو المطلوب منك؟

قال الخليفة: إن هذا الخاتم سيمنحك القوة، وهي قوة الخليفة بكل صلاحياتها، وبكل حصانتها، ويمكن أن تحل محلي أثناء هذه الفترة، لكن ليس بقوانين الماضي، إنما بقوانين الحاضر، وبصلاحيات كاملة لخليفة في الأرض.

سألته: وأنت أين تذهب خلال هذه الأيام؟

- سأبقى هنا وأتحول إلى شخص يشبهك تماماً، سأمسك القلم لأدون كل ما عجزت عن تدوينه لحد الآن، لكن برؤيا خليفة حكم البلاد، وبنى لعاصمته ملوية ترتقيها وتذكر من فوقها اسم الله.

أصابني الذهول... كيف يتقمص شخصي، لقد حمدت الله في تلك اللحظة لأني وحيد، وليس لي زوجة، والمرأة التي أحبها وبادلتني الحب في زمن الالتباس قد هاجرت إلى مكان قصي في الأرض، وهي تنتظرني هناك. بعد أن أرسلت في طلبي تحت ستار (لم الشمل) وحيث أجريت أكثر

من مقابلة في السفارة، وكنت مضطراً للإجابة عن أسئلة محرجة وقلت لهم: إن نهديها الصغيران قد تحفزا من غير انتظار، وبقيت حلمتاها دهراً مدخرتان في خيالي ومازالت سراً من الأسرار، ومازال الأمل يراودني بالتحري عن ضفائرها وعن أشياء أخرى لا أحد غيري يعرفها.

حمدت الله مرة أخرى لأن الخليفة لا يعرفها ولا يستطيع أن يذهب إليها، لأنه كما أعلمني لا يتقمص إلا في حدود عاصمته، في هذا الحيز فقط، وعندما يغادر المكان يرجع إلى أصوله الأولى، وإذا ذهب بصفته المجردة، حتى وإن كان خليفة، لن يحل ضيفاً على قصر (كريبس هولم)[1]، فهو ليس من معاصري الملك غوستاف، ولا يملك جواز سفر كحال عباد الله، وإذا كان قد حل في المدينة، فالأمر بسيط، المدينة مدينته، ولا يحتاج إلى أوراق ثبوتية ليجتاز نقاط التفتيش المغروسة في كل مكان، وفي وسعه أن يتفقد أحوال رعيته ويركب الزورق ويعبر النهر كحال أولئك الذين سئموا الوقوف عند بوابة الانتظار.

لذلك شعرت ببعض الارتياح، لكن السؤال الأهم الذي يحتاج إلى إيضاح هو: أين أذهب؟

تدارك الموقف وقال:

- سيكون رهن إشارتك كل ما كان لي.

إن الأمور بدأت تتراكم، إنه موضوع واسع ويتجاوز قدرتي على اللجم، وأحتاج إلى ألف سؤال قبل أن أخطو خطوة واحدة.

---

(١) القصر الملكي في السويد.

إن مدة أسبوع تعتبر طويلة، ولا أدري لماذا أختار هذا الرقم وإلى أي مدى له علاقة بالعرب الذين كانوا دائماً يقرنون أعمالهم برقم (٧) وهل له علاقة بالمعلقات مثلاً، أو بعلامة النصر التي يستخدمها الصبية عند رفع أيديهم أيام الحرب؟!.

لكن المشكلة هي أين أذهب!!، لأنه من غير المعقول أن أتحول إلى شخصين، وأتواجد في مكانين، ذلك من المستحيلات، يبدو أنه شعر بالحيرة التي أعانيها، لذلك ابتسم وهو ينظر إلي بإشفاق، وقال: إنك ستصبح خليفة، بمعنى آخر ستحل محلي وكل أوامرك ستنفذ في الحال، ولن يجرؤ أحد على معارضتك من شرق البلاد إلى غربها، وتملك كل شيء، وتستطيع أن توحد البلاد بعد الفرقة بكلمة واحدة، لها فعل السحر.

وعليك أن تفتش عن هذه الكلمة.

لكن في أي معجم أو قاموس يمكن أن أجد مثل هذه الكلمة.

قال: عليك أن تجتهد، وستأتيك الوفود، ويمكن أن تضع حاجزاً لصد الرصاص عندما تخطب خطبتك الأولى.

سألته عن حدود البلاد التي يعنيها، وهل تشمل دول الجوار، التي كانت حدائق خلفية لبلادنا، قال: إن مرارة الزمن في فمي أتذوقها في القبر كل حين، الحكمة تتطلب فن الممكن، وحتى لا تؤجج العداء أرى أن تباشر نفوذك في "ما بين النهرين".

وماذا عن الجوار؟ هل نستعيد مجد عمورية؟

قال: ممكن، لكن عليك أن تتحلى بالحكمة، وقل لهم قولاً حسناً ولا تغلظ بالقول، ولا تنس أن الله لما أرسل موسى إلى فرعون أوصاه أن يقول له قولاً ليناً.

سألته: هل أتخذ من إيوان المتوكلية مقراً ؟

قال: لماذا الإيوان...؟!

– إنه المكان الذي سيغريني بإرسال الجيوش في كل اتجاه.

قال: صحيح، وابتسم بحزن وأضاف: في عاصمة ملكي سيغريك التاريخ، كلهم سيأتونك طواعية صاغرين، ولا تنس أن تستخدم سيارة مصفحة ضد التفجير لأن بعضهم سيحاول قتلك، والماضي ليس كالحاضر.

كان هناك سؤال يلح بخاطري – هو كيف سيكون شكلي؟

وهل سأبقى بنفس الملامح كما هي الآن، أو أحتاج إلى تعديل أو إضافات أو حقن، أو حتى إلى استنساخ؟

ابتسم تلك الابتسامة المطمئنة، وقال بهدوء: بما أنك ستكون الخليفة، ستبقى صورتك كما هي ولكن بشكل الخليفة وبكل التفاصيل، وحتى أهون عليك فهم الأمور، نحن نتبادل المواقع، أنا أتحول إلى هذا الشخص الذي يسكن هذا الحي ويكتب التاريخ، وأنت تتحول إلى خليفة، وهي فرصة نادرة قلّ أن يجود بها الدهر، وها هي تأتيك طواعية وتنقاد إليك، لقد ابتسم لك الحظ لتعتلي صهوة المجد، لقد جاء يسعى إليك، وأنت لم تجرؤ على تصوره حتى في الأحلام.

سألته فيما إذا كان علي أن ألتحي وأتجلبب، وهل أعتمر عمة بيضاء، أو يفضل أن تكون سوداء، وكم عدد طياتها، أرجو أن يتسع صدرك، إنه مجرد استفسار إضافي، قال:

كلا، لن تعتمر عمة.

- هل اعتمر كوفية؟

كلا لن تعتمر كوفية.

قلت بحذر - ماذا أعتمر إذاً؟، قال: تضع تاجاً، وكان من البديهي أن أسأله عن التاج وعن عدد الجواهر التي سيرصع بها وهل هي من الصنف النادر والثمين، والتي لا يوجد لها مثيل، وهل هي حقاً إن تدحرجت واحدة منها على بلاط العرش سقط من طوله دون عناء. وهل سيبقى هذا التاج ملكاً لي بعد انتهاء المهمة، ومن أين سيأتي به؟!!

وبعد أن قرأ أفكاري جيداً، قال بهدوء: إنه تاج من الكلمات. شعرت باليأس وعدم الرغبة بهذا التاج، الذي لا يعدو عن كونه كلاماً فاضياً، وحتى لو لم يكن، من هو الذي يشتري الكلام هذه الأيام.

ولكن إجلالاً له واحتراماً لذكراه العظيمة التي طبعت في نفسي منذ زمن الدراسة في المتوسطة، حاولت أن أظهر بمظهر من يقبل راضياً بأمر الخليفة ومن غير اعتراض.

وبعد أن سرحت بعيداً، حانت مني التفاتة كريمة إلى الأستاذ عبد الرزاق البدري لأرى وقع الحكاية عليه، فوجدت مكانه يعلن كثيراً من الغياب.

العباءة*

بعض فواصل الحياة متأرجحة لا تستقر على جواب، إذا تساءلت كيف حصل؟!... تبقى حائراً، هل هو القدر؟، الصدفة، أو غيرها، إنها أشياء تحتاج إلى إعادة تركيب أجزاء صغيرة متناثرة، بعضها ذاب، سقط حضوره، اختفى مع طائر، أو هو منذ البداية عصي الحضور.

في وقت من الأوقات كان عليَّ أن أنقب وأبحث بأناة لأهتدي إلى أصل الحكاية التي تركتها تحت هذا الكم الهائل من الركام.

ماذا لو لم يجرفني الماء المنحدر جرفاً إلى ذلك المكان، لتلامس قدماي القاع، وأبزغ من جديد وأقبض على شهقة حياة، لولاها لحملني النهر في مجراه، وكأي غريق يلفظني بعد حين كقربة رجراجة، وقد أعلق بنتوء، أو يضربني الموج عند شطآنه الموحشة.

---

* العباءة- مفردة يرجح أنها آرامية الأصل؛ وعرفت قديماً بالبساط والسعة وسهولة الحركة؛ وتلبس المرأة العباءة لتستتر بها وتحافظ من خلالها على وقارها وحشمتها؛ وكانت تنسج من الصوف وتتكون من فجتين.
أما اليوم فقد أصبحت موضة نسائية بامتياز؛ وتصمم في دور الأزياء؛ وتروج لها الفتيات العارضات بخطوات رشيقة تحت الأضواء.

عندما تتنفس الماء تعبةً عبّاً وتتفتح نوافذ المكان على نوافذ اللحظة الأخيرة، الأبواب مخلوعة، الباحة واسعة، الجدران شفافة قابلة للاختراق، يمكن أن تستطيل، تتكور، تمتد في كل اتجاه نحو الموت.

كنت أمامه عارياً كإنسان بدائي يعيش عند حافة النهر ويمتهن الصيد، وليس الصبية بأحسن حال، كيوم ولدنا نسبح عراة.

***

كل عتبات البيوت في تلك "الدربونة" الضيقة خلت من النسوة اللاتي اعتدن الجلوس أمامها، وكان يمكن أن تبدو "الدربونة" أكثر أتساعاً لولا أم محمود التي احتلت عتبة دارهم، تقابلها أمي التي افترشت عتبة الدار، موعد العصر مدوناً على الحائط الطيني، فعندما يصل ظل الجدار إلى الحافة المقابلة، يكون المجلس قد انعقد بين العتبتين، لا يربكه سوى أبي غالب وهو يعلن عن مقدمه منحدراً إلى النهر، حيث اعتاد الرجل أن يخطو بخفة هارباً من العتبتين، أما ساكنو الجهة المتصلة بالسوق فلا أحد منهم يعبر المكان إلا في أوقات نادرة، مما أتاح لأم محمود فرصة طيبة لتمد لسانها في كل اتجاه. كانت أمي في جلستها المعتادة عند عتبة الدار، تتحدث بتلقائية عن أمور لا تخطر ببال، وهي تبرم مغزلها المدلى بخيط الصوف، وتعيد برمه كل حين، تقابلها أم محمود ساعة العصر، تبادلها الوشاية، لكن لا تجاري مغزلها المدهون، يتبادلن أخبار الجارة العزيزة والغيرة من ابنتها البكر التي زفت على فرس قبل عام وكلام الناس عن

ابنتها الصغرى التي لم تغتسل بعد. عندما لمحت تلك الصبية ساعة العصر تلج الماء وثوبها متماسك لحد الالتصاق، تطوعت لأخبر أمي – إنها اغتسلت، فرمقتني بعين حمراء، أدركت فيما بعد مدى جهلي، وسر نظرتها التي بقيت مؤنبة لوقت طويل. كانت تمسك المغزل مع الشمس، ولا أدري إن كان لوقعه سحرُ أو أن برمه تحول إلى نوع من الإيقاع. أم محمود تضجر وتترك مغزلها لتلتقط أطراف الحديث لتمده وتنفشه وتطويه بدلاً من الصوف.

تواصلت طويلاً ولم يشغلها البيت ولا العرقوب الذي تطلعه لاهثة وهي تحمل جرار الماء. جدولها إعداد الخبز في كل صباح، أما الحساء فلا ذكر له، وإذا حل كان ضيفاً بلا مواعيد.

في أواخر ذلك الصيف اكتمل لديها ما يكفي لنسيج عباءة، حمت تلك الخيوط المدحوة ووضعتها في كيس على ظهري صوب النساج. استقبلني بلا اكتراث عندما بدأت أملي عليه مواصفات الجودة، لفت نظري إلى أنه صاحب صنعة ورمى لي قطعة نسيج، وأمرني بصوت مؤثر أن أتلمسها لأميز إن كنت قادراً على التمييز، كم هي ناعمة ومسبوكة ومتينة ومغلقة السداء وخالية من العقد.

تداركت وقلت:

– أنت مشهود لك، وأنت الوحيد الذي يفك (الكعبرة) ويصل الخيوط ببعضها بلا بثور، ولولا الصيت الذي تجاوز أسوار المدينة لما عبرت الشط وجئتك إلى هذا المكان.

عندما عدت إلى البيت حاصرتني بنظراتها المتسائلة، لم أتهرب كحالي في المدرسة ساعة الاصطفاف، إنما وقفت منشداً:

- عباءة محبوكة الصنعة، مسبوكة الخيط، ناعمة ملساء، خالية من العقد، وعلى غير عادتها اجتاحتها ابتسامة مشرقة وانفرجت أساريرها وكشفت عن أسنانها البيضاء، وطغى عليها الحبور وغمرها فرح لم أكن قد تعودت عليه.

لم يمض وقت طويل حتى أيقظتني على غير موعد، وقد أعدت لي صحناً معتبراً، والزبدة التي طالما شكوت من ضآلتها ظهرت طرية وقد تضاعف حجمها في ذلك الصباح.

لقد اكتمل النسيج مبكراً، وأودعه النساج لدى خالتي التي أرسلت بدورها تستدعيني على عجل.

سلكت الطريق ذاته ماشياً بمحاذاة الشاطئ، مبتعداً عن الجلاميد المؤلمة. متجهاً صوب المدينة تتجاذبني الرغبات، وفي ذهني صورتها ولهفتها عندما وضعت يدها على كتفي بحنو توصيني كما لو كان حلماً بالحرص الشديد. لاشك أنها ستسعد بعد طول عناء، بعد هذه الرحلة العجلى، قفلت وأنا أحمل النسيج، فأمسكت الظهيرة عند بوابة الماء، نظرت إلى الزوارق الراسية وقد صفت باستقامة ومنظرها يغري بالركوب، كان من الممكن أن أتكئ في جلستي تحت فيء الشراع الأبيض وأتلمس أوتاره لو دفعت ثمن تذكرة بعشرة فلوس، ولكن لم انقد لسبب بسيط: هو أني لم أكن أملك تلك الفلسان العشر.

حين عبرت الجسر فاجأتني عربة قادمة، كادت ترميني في النهر، خشيت على حملي وانتحيت إلى لوح مجانب واستطعت أن أمسك بسلك السياج، ولما تلاشى صرير الألواح الخشبية عدت إلى وسط الجسر وعبرت وحيداً وفوق ظهري ذلك النسيج محزوماً بحبل قصير.

ولما أصبت في الضفة الأخرى أنحدرت مع الشاطئ وتابعت بخطاي الطرية على الرمال الناعمة المبتلة بالماء أتعجل الوصول، تخيلتها جالسة عند الجرف تمد البصر متلهفة ترقب بحذر وقد تخلت عن حالة الفرح المفاجئ الذي بدا طاغياً في الصباح.

كنت ألجأ إلى الشاطئ وحافاته الناعمة وكان امتداده الرملي متقطعاً وفي أماكن أخرى طينية تغوص بها الأقدام، فأحس بوخز عيدان مطمورة تحت الطين، وتمنيت لو تصلبت ثخانة قدماي وتحول باطنها إلى صمت مشابهٍ لصمت الجلود، كان من الممكن أن أبلغ هذه المرحلة المتقدمة في عالم الحفاة لو دامت صداقتي مع محمود ابن جارتنا الذي لم يكن كباقي الصبيان، كان مميزاً، يجري بين الشوك مرتدياً دشداشة قصيرة من الكتان الأبيض، وقدماه ترابيتان ضخمتان متورمتان كقدمي تمثال قديم، انحسرت الرمال بدأ يحل محلها حصى متعثر، برزت أصداف صغيرة ناتئة، وفي أكثر من خطوة كنت عرضة للانزلاق عندما أطأ جلموداً علقت به تلك الرغوة اللزجة التي تعرف بطحالب الماء.

الحذر الحذر، كنت أردد متماسكاً مع أنفاسي المتقطعة، وأنا أتابع خطاي، والأمل يشدني إلى عتبة الدار، ووطدت

العزم أن أتخطاها مسرعاً وأمرق في غفلة من أم محمـــود، وابتهلت في سري داعياً ألا تكون قد عرفـــت بمـــأموريتي، لأنها سترابط عند عتبة الباب.

في ومضة خاطفة طرأت لي خاطرة الانحدار، وأنا أعود بذاكرتي مسترجعاً منظر أولئك الذين يكورون ملابسهم فـــوق رؤوسهم وينحدرون جماعات مع المجرى، ويتعالى صـــياحهم وسبابهم متحدين هاجس الخوف من تلك اللجة التي تعرف بلبة الماء. لم أكن معجباً بهم وتماديت متجـــاهلاً خـــوفهم المرتـــد كصدى بعيد وأنا أطرح النسيج لأضعه فوق رأســـي وأحكـــم ربطه فأحسست بالاختناق، أرخيته قليلاً، وخضت متوجساً مع المجرى بهذه العمة العظيمة وأدركت الغاطس فطفوت.

لم يمض وقت طويل حتى تدلى ذيل منه خلف ظهري، انتابني فزع من الصورة التي تخيلتها، واعتراني إرباك شديد عندما سحب بثقله المبتل طرفاً آخر، فانزلق الحبل وهـــوت العمة بالماء.

وكرد فعل عفوي تخلصت من الأنـــشوطة، ولا أدري لماذا تراءت لي أمي في تلك اللحظة وهـــي واقفـــة قبالـــة الشاطئ تنظر لي من غير مبالاة وأنا أستغيث، لم تمد لي يد العون، لم ترم لي طوق نجاة، ربمـــا لـــم يكـــن ذلـــك فـــي مقدورها، حاولت أن أتلمس لها العذر، لكني عدلت، كانـــت شديدة قاسية تؤنب نزوتي الحمقاء، فقد بددت حلـــم لياليهـــا العشر، وهي تسل الصوف وتفتل مغزلها، وتبـــرم الخيـــوط وتدرجها مع الريح...

لم أعد أطيق قسوتها، اندفعت متخبطاً، أمسكت بـذيل النسيج، تشبثت به، ولا أدري وأنا في لحظة اليأس كيف لف حولي وأطبق بأذرعه كالإخطبوط، جاهدت، لم أكن كفأ لـه، رماني وبدأ يشدني إلى القاع.

تراءت لي أمي مرة أخرى، بدت حزينة وهي تحـاول أن تمد يدها لإنقاذي وتغريني بقطعة نقدية كانت قد ادخرتها كمكافأة لي، وندمت على نعتها بالقسوة، وكيف لفقـت لهـا حكاية امتناعها وعدم موافاتي بطوق نجاة.

ستحزن دهراً ولكن كيف تعلن حزنها وهـي ترتـدي الأسود منذ بدأت أميز بين الألوان، ولو كانت تملك عبـاءة ملساء غير المجزوزة، ربما ستحتاج لثوب مـن الموسـلين عندما تعلن الحداد.

كان عليَّ أن ألغي هذه التهمة قبل أن أغرق، حتـى لا تبكي ذنباً هو ليس ذنبها، وحتى لا أحرض أبي على إعـادة فعلته عندما ضبطته يجفف دموعها في إحدى نوباتها الباكية.

لكني عدلت، لأني وحيد عند حافة الرمق الأخير فـاغر أعبِ الماء. في لحظة من الزمن المسروق لامست قدماي شيئاً ما، حدث ذلك بلمسة ساحر... شهقت، فكانت شـهقة حيـاة، الشمس ممزقة وصدري عارٍ وأنا عائد من تحت الماء.

النهر شديد الانحدار، والشاطئ قريـب، بينـي وبينـه خطوات، كانت خطوات صعبة مازلت اذكرها، ارتميت عند حافته الضحلة بين رعشة التلاشي و الرمال، ومازلت ممسكاً بطرف النسيج.

من أولى تعليمات مسعفي اللحظة الأخيرة، إفراغ الجوف، حشر أصابعي، ابتلعتها، تقيأت فقاعة ودمعت عيناي.

وكما لو أنني في حلم ، رأيت الطيور مازالت تطير والنهر متعجلاً، أدركت أنه لا ينتظر أحداً، ولا يحصي الذين غرقوا، هو دائماً في جريان، ولن يبالي أن أضافني إلى الأسماء التي تبرأ منها، هو هكذا يحلو له أن يتبرأ ممن طفى وممن سيطفو من جديد، يدير ظهره للموت ويبادله عدم اكتراث، لكنه لا يفرق بين غريق وغريق، وشعرت بطغيان النهر ولم أحقد عليه.

نظرت إلى الجهة المقابلة، رأيت زوارق منحدرة في المجرى، امتد توجسي إلى الجالسين تحت فيئ أشرعتها السوداء... ذلك غير ممكن كانت بيضاء، شاهدتها منصوبة في صف طويل.

وتلاشت دهشتي عندما وجدت وجه النهر قد تمادى هو الآخر ولم يعد حيادياً مع الألوان.

هبت ريح سوداء حملت معها وجه النهر، ومن تحت أجفان طواها النعاس، رفعوني عالياً عالياً وتركوني أهبط، ثم رفعوني من جديد، وغمروني بماء ساخن وعويل وأصوات مخنوقة، ميزت من بينها صوت أمي وهي تؤنبني.

حكاية

إذا انقطعت المغامرة تنتهي الحكاية، لقد التقطتْ جدتي خيطُ المهنة ووظفتْ الحركة، وأضافت الارتحال إلى أدوات صنعتها وتكورت عند نافذةِ الشتاء.

كنا نجلسُ حولَ الموقدِ لنسري معاً في الليالي الطويلة وهي تسوقُ بطلَ حكايتها وراءَ حلمه، ولا أحدَ يعلمُ إنْ كانَ هو الذي يحلم، أو هي التي كانتْ تصوغ له الأحلامُ.

لو قُدر لأي منا أنْ يلتقيه بعيداً عن سطوتها ويسأله:

- إلى أين ستمضي بك الأحلامَ؟

لأجاب كما يليقُ بحالم: إلى حيث سيأخذني الحظ.

ولكنْ جدتي لن تدعَ الحظَ يأخذهُ، ستمضي به إلى حيث تشاء ليصول ويجول ويقول ما لم تقله الكتب.

لطالما أمدتنا جدتي بما يعيننا على اللهاث، ولم يخلُ مجلسها من الليل والخيل، واستطاعت أن تتحكم بفضاءات رحبة وأن تضفي مهابةً وسحراً على موكبها وهي تسوقُ الظعن لمورد الماء. وكم طرنا على غير هدى، وحملنا الشوق على جناح الهوى، ونحن نلهث خلفها غير مبالين بالأهوال، كلما حملته الأرض أو حط به الرحال.

أدركتْ فيما بعد أنها لم تتخطَّ الموقد، ولم تبرح قعر الفانوس المدلى، ولم يكن أميرنا أوفر حظاً من أمير لحكاية أخرى طار بجناحين من شمع وهوى حين طلع النهار.

لقد توفرت لها فرصُ سانحة لتربط بين جسور الود وتحل العقد -كما يقول الرواة- إلا أن صوتها المختبئ تحت الظل يبقى مكابراً إلى أن يسقط في النهر كسمكة هاربة داهمتها الشباك. وهي موزعة بين أكثر من صياد، ولا تدري على وجه اليقين أيهما سيعلن الحظ. لكنّ الديك الفاسق طالما (باض) مبكراً، فتطوى أذيال حكايتها وتقول: بات الكلام.

وهي التي لم تكن تنسى قبل إعلان المبيت أن تطلق إحدى أفاعيها لتتحسس جلودنا وتتأكد إننا لم ندمن الرعب، ومازلنا نرتجف خوفاً ونلتصق بالصمت وهي تطوح بالأمير.

لحكايتها طقوس، فهي لا تبدأ مع الشمس ولا عند الضحى ولا في أي وقت من النهار تبدأ عندما تضبط أوتارها مع الظلمة المتدرجة عتمةً مع المغيب، وتضبط مؤشرها مع الشعاع وهو يتلاشى بانحدار.

في لحظة الترقب تتباطأ الشمس وتستريح خلف التلال، وتحومُ الطيورُ حولَ أعشاشها، تطاردُها الريح، تشتط صعوداً ونزولاً بين البيوت وأعالي النخيل مترقبة مرتابة من فم الليل.

في هذه اللحظات تصمت الطيور وتصفّ أجنحتها، حتى العصافير تبدو وكأنها أخرى غير عصافير الصباح.

حينها نكون قد أوقدنا الفانوس وحملنا حطـبَ الرمـثِ إلى موقدٍ داخل غرفةٍ لها ظهر طويل، وقائمٌ من الصفصاف، وباب بمرد واحدة يفتح في عز البردَ عندما نشعر بالاختناق، ولم نكن نحلم بموقدٍ أفضل تدورُ حوله الأحداث كما تـدور بمهماز الجدةِ في هذا المكان.

ما إن تجتاز الباب وتقف عند قائم الصفـصاف حتـى تأنس لفسحة تمتد بك إلى نهاية الجـدار، يتوسـطها موقـد ومنصب يعتليه (كتلي)[1]، وإلى جانبه طبق من حديد صُفت عليه عدة الشاي كان بالأصل غطاء لبرميل وحلّ بديلاً عـن الخوص الذي أكلته النار، وحوله تتوزع الأفرشة والأغطيـة والوسائد وتتوزع الأنفاس وتدور أحداثٌ جسام.

مِن هنا تبدأ الخطوات الأولـى إلـى مجاهـل الليـل، المتحلقون حول الموقد في سكون، عيونهم اللامعة يـضيئها اللهيب، وتعود الوجوه لعتمتها عندما يخبو الشعاع ويـذوي البصيص الراجف المدلى بمسمار، ليضيف بقعره ظلاً دائرياً فتبدو جمرات الموقد المتثائبة أكثر وهجاً تحت الرماد.

عندما أطوي كل هذه السنين وأتراجع إلـى الـوراء، وأجلس عند حافة الموقد مع الصبية وألتحف باللحاف، أشعر أني أستفز صوت الجدة وهي تفتح صفحة الليـل، وأسـتفز النهر الذي تكتم طويلاً على السفينة الغارقة في القاع.

تقول جدتي: إنها مليئة بالبنـادق مليئـة بالـصناديق، غرقت في زمن الحرب. بفعل مـدفع تركـي، فجرجرهـا

---

(1) إبريق الشاي باللهجة المحلية.

المجرى عند صخرة، طالما أعادت وصفها من تحت الدثار. في كل عام عندما تضمر أضلع النهر في بداية الصيهود، يحج إليها الغرباء، أصحاب الشوارب السوداء، وفي اللحظة التي يتعرون ويمسكون بالحبل، وقبل أن يغطسوا في الماء، تقفل حكايتها وتقول: بات الكلام.

وإذا شاءت جدتي أن تمدنا بفاصل، تعود مع ابن أخيها وتدله على منفذها السري، لنقف عند حافة الشاطئ متطلعين بصمت، نحصي أنفاسه الغاطسة تحت الماء، ويمضي الوقت، ولا حبل يهتز ولا بنادق تشق الماء، فنسرع ويسرع كل من كان معنا وبكل ما أوتينا من قوة نسحب الحبل، فندركه عند حافة النفس الأخير.

قصص كثيرة تحاك في الظلام حول موقد الشتاء، مستذكرين الصيف الذي ولى ومنتظرين صيفاً جديداً، تتدلى الخيوط الراجفة من ثقوب الليل عندما تنفذ حبات الذرة الصفراء، وينزوي إبريق الشاي، ويهزم الدفء، ولا يبقى غير صوتها وهي تكرر من تحت غطائها حلم الأميرة ذات الشعر الجميل.

تشتد الريح قبل حضور الأمير، وتؤز الجدة بصوتها مع الريح وتأمر بقطع ذيول الكلاب حتى لا تنعم بالدفء وتنام، وما أن نهم بقطعها حتى يطير الغماء كاشفاً عن أضلع الغرفة العارية تحت الوميض، ويتسرب البلل بين طيات الفراش، فنلوذ بأذيال ثيابنا عند مرد الباب، نبحث عن مكان لأجسادنا الراجفة، والمطر يجلد الأنوف ويلوك ما تبقى من ذيول الكلاب التي قطعت منذ يوم كانت جراء.

لا نلبث طويلاً حتى نعود ويعود الغماء، ونلتئم ثانيــة، ويدور العشاء، وينوس إبريق الشاي من جديد، وتدور فوطة من الصوف لتنظيف ما علق بين أصابعنا من ثريد.

* * *

بقيت الصخرة في الذاكرة ولما ذهبت استدليت عليهــا مستعيناً بمتواليات الوصف من تحت الدثار، اكتــشفت لجــة خادعة، ولم أر بقعة سوداء، ولا أي خيال لحطام، فقط كانت رغوة ريش عند الشاطئ وصخور في مخاضة تعتليها طيور صامتة، تستقيم على قدم والأخرى في الهواء، كأنها بانتظار فاجعة فشعرت بالخوف ورجعت.

واضبت جدتي على إقحام بنادق ابن أخيها وحــشرتها في كل مكان، حاولت تهريبها مع حلي الأميرة وصــناديقها، ولم تسمح لأحد منا بفتحها ولا حتى بلمسها، وبقيت بعيدة عن الصبيان، إلا أنها تسربت دون تــدبير وفــي غفلــة منهــا وتواصلت مع أحلام الصبايا ذوات الضفائر المتدليــة مــع إطراقة الرؤوس، كانت كل واحدة تلون أحلامها على هواها وتذوب شوقاً كما تذوب أماني الليل حول موقد الشتاء.

تقول الجدة: إن القصر نُحت بأناة ولما دخله الإيمــان حملته الملائكة إلى هذه الأرض ليشع على الرعية بــالنور، روعة القصر تبهر الرائي، جدرانه ملساء، راســخة تحــت السماء، مداخله محكمة، نوافذه من فــضة، وشــرفاته مــن البلور، له شرفة تغرق في الليالي التمام بفيض من النــور، فتهلل الرعية وتكبر للقمر الذي حل ضيفاً على القصر.

أما نحن الصبية، ورغم ما في داخلنا من يقين بأن القمر في السماء، كان علينا أن نصدق انسجاماً مع الحكاية أن القمر حط هناك. كنا نعلم أن الأميرة غير عابئة بالذي حط على الحائط، وأنها ومعها حراسها عند الشرفة العامرة منصرفة للأمير الذي سيأتي من الباب المشرعة للقادمين.

في غفلة من الحراس تمكنت جدتي مستعينة بخبرتها أن تدس مغامراً ليمرق من باب العطايا، ولم نتعرف عليه، لم ندقق ملامحه، جاء مسرعاً وتخطى متخفياً في زحمة الباب، وكان يتابع لياليها، ولما ركبته العفاريت اهتدى إلى ساحرة تسكن الماء. هكذا يسرت له، وإن لم تعلن صراحة، ولكي يطال الشرفة القمرية، كان عليه أن يأخذ تراباً من تحت قدمها اليسرى. وعندما يطبق براحته على التراب يردد "أخذت قلبك من تحت قدمك" وكان التعويض جائزاً سحراً بخصلة من شعر.

وما إن دخل القصر حتى تاه كمنبوذ، وضاع بين الأعمدة، وتضاءل تعيساً عند قاعة الفرسان، وأغمي عليه، إلا أن عطراً أخاذاً أعاده للوعي، ولما تابع مسرى العطر عثر على ما كان يعلق بالمشط ويرمى من النافذة، ابتسم في سره، وأخذ يجمع الفاضل من الشعر، وقبل أن يهرب، أطبق عليه أشداء ورموه مدموعاً موجوعاً خارج الباب، لم تعرفنا جدتي بهوية المغامر وبقي بلا عنوان.

ولو دخل ذلك المغامر القصر كما يدخل الفاتحون وخطف الأميرة على ظهر حصان أبيض واختفى بين مروج الأقحوان كما يختفي العشاق في زمن الحب، لكان له شأن

عظيم، لكنه بقي في الظل ولم يضف شيئاً لرصيدِ معرفتنا سوى أنه عابر سبيل.

بقيت مكابرة وتسترت عليه، وفي كل ليلة نبيت الأمر فيما بيننا على فضح الدعي ولضعف وسائلنا في المطاولة نستسلم في غفلة ويسرقنا النوم.

لقد أدركت جدتي بفطنتها أنها خرجت عن مسارات السرد، وفقدت الإيقاع المتناغم مع الأحداث، لذا أرادت أن تعوضنا عن المغامر العابر الذي لم يلق قبولاً، ولم يتصرف كفارس، وأفردت صفحة للأمير الجديد الذي حل ضيفاً علينا بما يناسب قدراته ليمسك بالخيوط.

ابتدأ الأمير متنكراً، وضرب في الأرض مهموماً، وطوى دروباً طوال مترقباً لحظة مواتية لاصطياد الحلم، كان في ترحاله يبحث عن شيء أرقني كثيراً، لم تفصح عنه، وبقي عالقاً تحت الدثار، كنا نحبس له الأنفاس إذا ما رغبت أن ترميه محطم الشراع على شاطئ بعيد، أو تقحمه في منازلة غير عادلة، أو تأمره بالشد على الجمع وهو وحيد. أما الأبحر والجبال ودرب (الصد لا رد)[1]، الذي شقه بحد السيف وسط الأهوال، فقد كان مبهراً، وحين قتل الوحش المتحكم بالنبع، لم يحظ بالإعجاب الموازي لذروة الحدث، ويعزى ذلك إلى أننا ولدنا عند حافة النهر، ونشم رائحة الأشرعة كل صباح ونغفو على وسادة الماء.

---

(1) مثل شعبي يضرب على الشخص الذي يسلك طريقاً لا عودة منه.

ولما قدم إلينا الأمير، فرحنا فرحاً عظيماً، جاء يحدو الإبل وخلفه خلائق كثيرة فخرجنا لملاقاته عند العرقوب، وصعدنا إلى كتف النهر حيث دارنا العتيد.

بقيت جدتي غير مكترثة وهي تنظر بنصف إغماضة مسبلة الجفون. كان المشهد انفعالياً، ونحن نحمل السيوف، وفي مسافة الصراع بين الحلم واليقظة، نطير عالياً عندما يداهمنا الخطر، نحلق في الهواء، أو نسقط في هوة بلا قرار.

بقي الأمير متوجساً يرقب جدتي من طرف خفي والود بينهما مفقود، استطاعت دون أن تفشي سراً أن تروضه ليسكن قرب النهر ويصعد المنحدر، ويحمل إناء الماء، ويستحم في الشاطئ، ويصطاد السمك ويحلم بالشرفة، ويرقب الأشرعة لعله يراها بين القادمين.

لم يلبث الأمير حتى ضاق ذرعاً بجدتي وخرج عن الطوع، وقرر موافاة الأميرة ذات الشعر الجميل.

كنا نعتقد أنها على مرمى حجر، وقصرها قريب، ولخطأ في التقدير شط به المزار، عندما غضبت جدتي ورفعت القصر قبل أن ترفعه الملائكة وحطته في مكان بعيد.

لكن هذه المديات الخارجة عن الذاكرة القريبة، لم تثن الأمير، وتقدم كفارس يمد سيفه على الأعناق ويغير على الأعداء، إلا أنه "طبقاً لروايتها" وقع في الأسر لما كبا به الحظ. وكان متاحاً لها أن تعلن عن فاصل، ثم تعود لفكه وتقفل، حتى نطمئن ونخلد بعد هذا العذاب، ولكنها ولأسباب غير حيادية، أصرت أن تصلبنا عند هذه العقدة.

***

كنت أفكر بالأمير وأنا أتعثر بخفق أذيال دشداشتي فوق الجرف حين رأيت جدتي منحدرة إلى الماء كأنها على موعد لتمسك بالريح قبل سقوط الظلام، في تلك الساعة من الغروب، عرفته لما تداعت الصور، ضبطته، إنه ابن أخيها، أنا أعرفه، هذا الدعي لا تخطئه الذاكرة وإن أخطأته العين.

ولكن أين يريد بها؟!

تساءلت في حيرة!!

كان من الممكن أن أركض وراءها وأتشبث بأذيالها، وأتوسل إليها لتعود. فإن لم ترق لي جدتي، فليكن من أجل الأمير الذي كبا به الدهر. لكني عدلتُ.

لقد عادت لي ذكرى ذلك اليوم الحزين وأنا أرنو إليها، حين رست في الشريعة، كأنها الآن، ووضعت حملها لتلتقط الأنفاس، وظهرت أمامها، كان وجهها رقيقاً متهدلاً يكاد يسقط وشاربها مزغب عجيب.

تراجعت دهشتي ونسيت شاربها في لحظة تسلطها عليّ بعينيها الحجريتين، كأني لم أكن حفيدها.

وحين تراجعت مهزوماً، لأن قلبها ونادت بصوت لا أخطئه بين الأصوات، تسلطت ثانية بنظرة أرحم، وألقمتني شقفة (شلغم) سيئة المذاق، مضغتها على معدة خاوية مازلت أذكر طعمها الحريف، ولأسباب أخرى غير الطعم، جلست على الجرف وأنا أكرر بصمت، كما لو كنت في هذيان:

لن أركض وراءها... لن أمسك بأذيالها.

إن الارتداد الذي جعلني موزعاً بين لاءات كثيرة هو ذلك الخيال الذي يلوح بإصرار، إنه ذات الدعي الذي تسلل وأطبق عليه الحرس ولم تعلن عنه، وبقيت متكتمة عليه. لكن السر لن يبقى سراً.

كان شكل الزورق وتهدل الشراع، وتأرجحه فوق الماء -أدلة إثبات، واختيار هذا اللون الملامس للغروب- دليل سوء. عجبت كيف هان مجلسنا عليها، وبم وسوس لها الدعي كي يعبر بها إلى الضفة الثانية لتحكي له حكاية أخرى هناك.

نبض بداخلي عرق، وأحسست برغبة تتنامى، وشعرت أني سأفعل شيئاً، كانت بارقة، رجعت وأنا أقلبها على جوانبها بحذر وأنا أتابع خطاي...

لم يكن أحد من رواد الحكاية المتحلقين حول الموقد يعرف سرها.

أنا صاحب الخاتم السحري ولا أحد سواي، وقبل أن يفطن أحد الشياطين لغيابها دلفت تحت الدثار وحللت مكانها، لم يلبثوا وأنا أتلصص عليهم حتى نفضوا أيديهم من حبات الذرة، ولم يبق في الطبق غير الحصرم الأسود، خمد الموقد، واتسع قعر الفانوس المدلى، وما إن احتوانا ظله حتى بدأت بالصلاة والسلام مفتتحاً الليل، وانطلقت متهيباً أقص بصوتها، سارداً بنبراتها، أحداثاً جساماً، فأنست لوقع السكون، عندما ران صمت عميق، شجعني أن أبدأ بابن أخيها، أمسكت به وطرحته وأنا أضغط عليه ورميته لاهثاً فوق الأرض. أما الصناديق التي لم تأذن بلمسها، فقد أمرت،

وجيء بها على أكتاف المردة، وأذنت لهم بالانصراف، حطمت أقفالها، وقلبتها في المكان.

كان لابد من إنجاز أعمال أخرى، فالوقت ينفد ولا مجال للانتظار، وبدأت على الفور بفك أسر الأمير، وإزاحة الصخور وشق الرمال وردم الوديان والإمساك بالديك من أجل غاية أخرى وإن كان ظاهرها من أجل الأمير بطل حكايتنا المطارد في الليل والمحاصر في النهار، ولما انتهيت تنفست بارتياح.

في ذروة الاحتدام عندما كنت متلبساً بالسرد انتابني حماس شديد، ولم أفطن إلى مخارج الحروف، وأغفلت مغالقها، وفي غمرة انشغالي بالبحث عن نهاية لهذه الإضافات التي تورمت دون رقيب وجدت نفسي أمام معضلة، وفي حومة ترددي وأنا أفاضل بين خاتمة وأخرى انكشف أمري، وأنا على بعد (شخطة) من النجاة، كان يمكن للنعاس الذي عولت عليه أن يتسرب مع إيقاع الصوت ويطرد الرعشة في مقاومتهم النوم، إلا أن تلكئي واضطراب الأحداث أفسد سانحة الانسجام قبل أن يسري الخدر وينزلقوا في الفراش.

في لحظة تعثري وأنا أتخطى الصناديق انفرط السكون ولم تتح لي فرصة الإمساك بتلابيبه، فأمسك أحدهم بطرف الدثار، أنا أعرفه، كان يريد أن يضبطني مرتدياً صوت الجدة. فتشبثت بعناد، تقدمت أميرتي، كانت الأميرة ترد ضفائرها إلى الخلف عندما تطل من الشرفة. ردت أميرتي ضفائرها وأمسكت به، رفعت يدها وأومأت لي بحركة

مشابهة لإيماءة الأميرة، وتحت لون الضوء الخافـت حلـت عقصة شعرها وأنا أنظر إليها بإعجاب، وكما لو كان همساً بيننا، استمدينا العزم من بعضنا وهممنا معـاً ودفعنـا ذلـك الشقي حتى انكفأ إلى الوراء، حدث صياح ولغط، لم يلبث أن تلاشى، امتصه رماد الموقد الهاجع تحت صـمت (الكتلـي) وخبأ الفانوس الراجف ونأى، ونام الجميع، ونامت أميرتـي، وأنا أرقب شعرها تحت وحشة الليل.

الانحدار إلى الحمرة

هل كانت (القلعة)[1] كريمة بما فيه الكفاية عندما أهدتني الصيف والنهار الطويل؟!

وهل كانت أصداء الجرف اللامتناهي القادمة من بعيد كحيوانات بدائية تشرب الماء هدية هي الأخرى؟!

أسئلة كثيرة وأصوات موحشة تستفزني ولا أجد لها جواباً.

عندما كنت في ذلك العمر لم أكن أعلم أن للحياة متواليات بائسة إلى هذا الحد، كنا ننام وسط الدهشة ونستيقظ من أجل البقاء، كان ذلك دفاعاً غريزياً وإن كنت لا أفهمه على وجه اليقين. كانت المتواليات بالنسبة لي كالنهر، حين أجد نفسي قد نأيت بعيداً أضرب بشدة وجه الماء كي أعود، لقد ناضلت كثيراً، ورأيت الجرف يعلو ويهبط وكاد النهر يطويني، كنت أعوم بإصرار حتى أصل الشاطئ. ولم أتركه

---

(1) القلعة: تقع على الضفة اليسرى من النهر قبالة الجناح الجنوبي لمدينة سامراء وكانت ترتبط بمسار فرعي مع خط سكك حديد بغداد – موصل.

يأخذني، لكنه أخذ أخي وتركني وترك لأمي حزناً لا ينتهي وبقيت ترقب اللجة التي غرق عندها أخي الذي أكبره بعام.

لقد غرق في الصيف، وقتها لم أعرف كيف أحزن عليه، ولكني حزنت، وترك لي وجعاً وخيطاً رفيعاً يحز في الروح، وبقي الحزن في عيني أمي يدور، كنت ألمسه بارتعاشتها وهي تضمني، وأحسه بلوعتها ونشيجها المكتوم.

ليس باليد حيلة، الدنيا تمضي رغم أنوفنا ولا تتوقف إن مات زيد أو لم يمت، في كل يوم، بل في كل ساعة، يموت آلاف الناس، ونحن بحكم العادة نفرح ونحزن، نغني وننوح، "هكذا حال الدنيا" هكذا قال أبي، ولم أدر ماذا كان يريد أن يقول.

لم أعد أغني مع الصبية، هجرت مجلسهم، وذهبت إلى حيث كان يذهب وجلست حيث كان يجلس، ونظرت إلى الجنيات المتلفعات بالمغيب، جنيات يجلسن على الصخور، يشطرهن الظل شطراً، لقد حدثني عنها كثيراً، كنت أمد نظري إلى الجهة المقابلة لعلي أراها، أجلس وحدي ساعة الغروب أتأمل النهر الهابط فلا أرى غير الظلام ولا أسمع غير دوي النهر فأنطوي على وقع خطاي مذعوراً تطاردني الكلاب.

كان أخي كطائر الماء، ومن في هذه القلعة لا يتقن فن العوم، دارنا تغفو على الجرف، بينها وبين النهر مخاضة رمال، لقد ولدنا عند الشاطئ وحبونا بين الصخور، كدت أجن لحظتها، وأمي هي الأخرى تلبسها الجنون وهي تصيح "أين دشداشته"؟.

حرثنا الماء، وانحدر أبي طافياً فوق (كلك)[1] وصحب معه أبو كتف وانحدرا معاً ولفهم النهر بصمته القديم، وطافا وسألا الواقفين عند البيوت، والصيادين، والرعاة، لم يلبث أبي أن عاد، والشفق قانياً على مد مسافات الرؤى وهو يجر جبلاً وسط الأفواه، يتبعه صبية القلعة، لم يجرؤ أحد على خدش صمته. وعند منفرج الباب، وهي ترتدي حزنها ماتت الكلمات، كان مساء صيفياً، وكنت أنظر إليه وساقاي ترتجفان، واستسلم أبو كتف على مرأى من الغروب.

عندما أتقهقر إلى هذه الخيبة أقف متأملاً، ولا أجزم أن كان أبي قد بيت سراً، لينحدر انحداراً عجيباً ويقهر النهر.

لكن أمي تعثرت وتوسلت (ربما في تلك الساعة عندما ترسخ القلعة تحت ليلها الهادئ) أن يبني لها شاهداً ويضع علامة عليه، ويقيناً لم تعي معنى القبر الافتراضي، لقد جاءها الوحي في لحظة فراق. وراح ليستفتي لها عن حكم بناء طلل لتنوح عليه. فأفتى له صاحب عمة يجلس في صدر المصلى وقال "إنها بدعة، والبدعة ضلالة، والضلالة إلى النار".

عندما أعود لأتنفس الزمن من جديد لا أستطيع أن أعرف كيف تراءت لأمي صورة (الحمرة)[2] لما أراد أبي أن يوافيها، ولا بسر الهمسة الفاصلة عندما قرر هجر المكان.

تبقى القلعة المكان الوحيد الذي نعرفه والبوابة التي يمكن أن نعبر منها إلى الدنيا الواسعة وإلى عالم لا تحده

---

(1) الكلك: واسطة نقل نهري بدائية، تطفو كالسرير على أقربة منفوخة.

(2) الحمرة: قرية زراعية تقع على الضفة اليسرى من دجلة جنوب القلعة.

حدود. ساكنوها والساكنون حولها، ينامون ويحلمون بالرحيل، وتتوزع رغباتهم بين النهر والقطار، حلمهم الأبدي أن يهاجروا إلى مدن أخرى.

عندما يغادرهم القطار ترفرف أجنحتهم حول العربات وتلتصق صدورهم بالنوافذ وينطلقوا بالحلم إلى محطات بعيدة، وما أن ينظروا إلى القبة المذهبة ومنارتها السابحة في السماء حتى يرتدوا متشبثين بأصول انتمائهم إلى المكان.

في صباح ليس كالصباحات الأخرى رحلنا وانحدرنا وانعطفنا إلى منخفض طافح بالماء يسمى (الصراة)[١] يمتد بنصف منحنٍ واسع تتخلله جزر صغيرة تحوم حولها الطيور، وتحف بها سيقان القصب الخضر، وعلى كتف موحل تقع مضخة الماء، لها غاطس وأنبوب، تقابلها بيوت من طين تمتد غرباً مع امتداد الحقول. رسونا بذلك الزورق الحديد الذي يعرف بـ(التك)[٢] رمانا وفراشنا ومتاعنا هناك.

كان لدارنا الجديد باب تستقبل الصباح وعلى يمينه غرفة بعتبة عالية، كانت للضيافة في وقت من الأوقات، فرشنا داخلها والتأمنا حول عشاء جاء به الجيران.

ربما كانت جدتي تنام في هذه الغرفة، لكن صورة الجدة تبقى عائمة ولم يكن لها حضور، كانت في "التك" يوم انحدرنا هذا كل ما أذكره.

---

(1) الصراة: مماء راكد يغذيه نهر قريب.

(2) التك: زورق من حديد صناعة ألمانية – من مخلفات الجيش التركي.

عند منعطف "التوث"[1] ونحن نلج في الراكد شاهدت أم علي، أخذت تلوح لنا، كان انحداراً عظيماً، ربما أدهشها.. هذا المنظر لا يتكرر أبداً في هذا المكان، أنا أذكرها، لقد ضمتني لصدرها وقبلتني عندما زارت القلعة، جاءت لتعزي، وجلسنا معها ساعة العصر، إنها أم علي، أنا أعرفها، واعتبرت ذلك اكتشافاً، وحز في نفسي أن أحداً لم يعبأ بها، وابتعدنا وهي تلوح ونحن نوغل في الصراة.

عندما رسا التك على شاطئ ضحل انتزعت جسدي من بين "نملية" وأفرشة وبساط من الصوف وبعض مهملات، هي كل متاعنا، وكانت النملية المشبكة بأسلاك ناعمة من أثمن المقتنيات، وبقيت لزمن مثار افتخار، كان لها رتاج نتحكم بإغلاقه لمنع الفئران، وعندما أعود لأمسك بزمن النملية يضيع الرتاج، ولا أعثر ولو على سلك رفيع لمقاربته مع رحلة النهر، لكن متواليات الانحدار طبعت على صفحة أخرى أنصع وأرسخ من مثيلاتها من الصور.

كنت في ذلك الصباح أحصي الأشياء بقلق عندما بسط الضوء مشاهد كثيرة وأنا أرسم على صفحة الحزن عنواني الجديد، حتى الصخور الراقدة في الجهة المقابلة من النهر والتي تجلس عليها الجنيات كانت مشطورة كما لم تكن من قبل، تماماً بمثل ما حدثني عنها أخي الذي غرق في النهر والذي أكبره بعام.

---

(1) التوث: قرية على مفترق تفرع يؤدي إلى الصراة.

كنت متوجساً من المجهول وساورني الشك كثيراً من هذا الذي يدعى أبو كتف والذي يصر أبي على مناداته بعمي وتساءلت بصمت إن كان يشاطرني الحزن، لقد بدا متبرماً وأزاح الغطاء عن رأسه وانفرطت شفتاه عن أسنان قائمة، شاهدتها مغروسة بمسافات متساوية كل على انفراد، وعجبت كيف لم أفطن إليه، وهو عمي كما يقول أبي، وأنا أعرفه، وطالما رايته يجلس عند الشاطئ ينتقي الحصى ويسطحه على وجه الماء.

لمَّ أبو كتف شفتيه وزمها، وبان فيء جذعه مهزوزاً وهو يخبط بمجذافه، كان يخشى ألا يدرك الانعطافة الحاسمة ليدلف في المجرى الراكد، إلا أنه أدركها واستدار منساباً بليونة نحو "الصراة".

بقي أبي واجماً وبقيا يتبادلان الصمت، إنه بمثل سنه وأضاعا معاً أياماً طويلة يتسكعان، وقد يكون أبي الوحيد الذي يعرف عنه أشياء كثيرة، ويعرف كيف حصل على هذا "التك" إنه من مخلفات الحرب منذ زمن الأتراك، وإذا ما قارنته بالزوارق الراسية، اعترف إنه كان محظوظاً، كان فريداً في الشريعة بحوافه العراض.

وكما تحط القافلة رحالها، رسونا عند كتف موحل ورائحة الصراة، تلاحقني ونحن ننزح متاعنا من جوف "التك" وحولنا أسماك صغيرة طافية على ظهرها بقيت رائحتها تطاردني لوقت طويل. هذه هي الدنيا الجديدة، ولا أدري إن كانت "الحمرة" كريمة بما فيه الكفاية عندما أهدتني "الصراة".

هذه "الحمرة" الراقدة خلف "الصراة" تغرب الشمس وراء بيوتها الطينية في امتداد واسع من البوار، نزح الفلاحون إليها من القرى المجاورة بعد نصب مضخة الماء، جذبهم صوتها وهي تدق في الليل، هي الآن على مرمى حجر من الطريق المعبد بالإسفلت، كنا نلوذ بنخلاتها فنحس أن الشمس بين أفيائها أقل وطأة من الظهيرة في ساحة القطار.

هذه النخلات النظرات المتشابكات الباسقات، بقيت مغروسة في الذاكرة كل هذه السنين، ولو قدر لي أن أعود لاستدليت عليها دون عناء، كانت تخيم على الحوش الطيني وعلى جزء من السور، ولا تمد ظلالها لدارنا إلا ساعة الغروب، وعندما أعبر إلى الطريق أمر بجوارها وأتطلع بدهشة إلى حمائمها، ويوماً بعد يوم بدأت أميز ذكورها، كانت أكبر حجماً وتزين صدورها بريشة ربيعية، وتطارد إناثها، وما أن تحظى بلحظة حتى تطير.

لم تدم دهشتي، تحولت فجأة إلى أعلى الطريق، وعدوت نحوه أتطلع بحسرة إلى الصبية عندما ظهرت عندهم أشياء ملونة لم أرَها من قبل، بعضهم بلعها وكان مذاقها حلواً. أما جارنا فقد أشعلها ومز أنفاساً منها، لا أسرار في هذه القرية لقد تفشى الخبر، إنها علب من دخان وأخرى من بسكويت، جاءت من السماء، وإن شئت الدقة جاءت من العسكر، هدية للمتطلعين ببلاهة بوجوه القادمين من بلاد بعيدة.

بدأت الرغبة تسوقني وأتعجل الصباح لأعدو نحو الطريق، لأتخذ مكاناً جنب (السيفون)[1] وأمتطي بخيالي تلك العجلات والدراجات النارية وهي تتابع على الطريق، نرفع أيادينا ونفرد أصابعنا ملوحين بالنصر لوقت طويل قبل أن ينزل علينا المن، الفرج جاء بلا موعد حين حذف أحدهم علبة من نوع غريب لم نألفه بعد، قلبت بدهشة، رفعت بالشمال، حطت باليمين، رميت بعيداً،... وانتظرنا، بعد برهة صمت، لا شيء، لا انفجار، نطمئن، نعود لالتقاطها وندخل في بحر المجهول، متلمسين طيفاً لنفتحها، وقد استطاع (العلص)[2] وهو شاب جريء أن يدقها بحصاة، ثقب غلافها المعدني، واهتدى إلى سر أحشائها، كانت علبة من السردين.!!

ذات مساء جاء رجل ووقف بيننا، واستقبل بترحاب، نادى أبي على فراش، ومددنا له بساطاً، كان الرجل ضخماً في كل شيء، أنا أعرفه، لقد شاهدته عند الصراة يوم هبطنا من التك وتطوع بمتاعنا وحمله على حمار.

كان قلقاً في مجلسه، لمحت ركبته النافرة، ولما أحس بنظراتي، مط الدشداشة فهزلت، ونظر إلي بغضب، قام ولف نفسه وتربع من جديد، وهو يحاول أن ينحى بأبي بعيداً عن الصيد ليبدأ معه حديثاً عن السيفون.

---

(1) السيفون: حوضين من الإسمنت على جانبي الطريق يربط بينهما أنبوب لنقل الماء من جهة إلى أخرى.

(2) العلص: لقب محلي لأحد الصبيان.

في تلك العجالة قدمنا له طبقاً مصنوعاً من نبع الرمان (كان هدية جميلة من جارتنا العزيزة أم نظيرة) ضم بعض أرغفة من الخبز وإكراماً للضيف وضعت أمي إلى جانب الخبز علبة بسكويت مفروطة من تلك التي حذفها الجند، بعدها راحت أمي تعد بسرعة الطبق الرئيس لتقدمه على العشاء، وهو من البصل، وكان حريفاً وغير مهجن آنذاك، لذا يدعك بالملح ويشطف بالماء ويذر بالسماق وتضاف له الزبدة ويقدم معتبراً.

لا أدري كيف بدأ الرجل يلف كل قطعتين من البسكويت بربع رغيف، وعندما حان وقت الطبق المميز المغطى بالزبدة البيضاء كان الخبز قد نفذ.

لا زلت أذكره وهو يتطلع بوجهي بشراسة، كأني عدوه، كان وجهي آنذاك ملوحاً بالشمس ومدوراً كالرغيف، وبعد فترة شاهدته يقف إلى جانب السيفون، ويرفع يده بعلامة النصر.

كابوس الغرق ما زال يلاحقني وما زالت القلعة تسكنني بذلك الشوق، إلا أني بدأت أفهم ولو جزءاً يسيراً من حال الدنيا، هذه الحال التي تسير كما تسير الشمس من أول الصباح حتى تهلك في المغيب.

صمتت مضخة الماء وبدأت بدلاً عنها ماكينة الطحين تكسر الصمت، ومنذ الصباح على الدرب يضيء الغبار وتأتي النساء والصبية على الحمير تتبعهم الكلاب، كانت ماكنة الطحين كياناً جديداً ظهر في ذلك الوقت، ولطالما قلت

الدور وطغي الصياح حيث لا أحد يرضى أن تطحن له حنطة وراء الشعير.

بدأت الساقية بالجفاف ولم يبق منها أثر لقطرة ماء، كل ما بقي غرز لأظلاف ماشية ومخالب كلاب، جاءت لترتوي وتركت أقدامها على الطين. جفت الساقية وتصلبت يوماً بعد يوم. وظلت منتصبة كجدار طويل ملقى على الأرض يمتد إلى أعالي الحقول، وفي انحدارها المقابل بيوت الفلاحين المتكئة على بعضها بانتظار الحصاد.

لم أد أعبأ بالساقية هجرتها نحو السنابل، أخذت أصعد وأنزل إلى الحقول وأسبح في "الصراة" أعبر المروز وأنصب الشباك لصيد القطا، وأرقب السماء في الليل، وبقيت لوقت طويل أعتقد أن النجوم في سماء "الحمرة" أقرب للأرض من غيرها، وأن القمر أسطع من الذي يضيء مجلسنا عند الدكة اللاجمة للعربات الهاربة حين كنا نغني في فضاء القلعة لنطرد الليل.

ما زلنا في الصيف حين هرع الصبية يركضون مرة أخرى نحو الطريق، كان غريباً عودة الجند أصحاب اللحى، وهم يقفزون بدراجاتهم النارية فوق الطريق الذي امتدت شهرته إلى قريتي "الرقة" و"التوث".

كان الجنود في الدفعة يربطون لحاهم بخيط، كنت أجهل السبب ولم أهتدِ للسر إلا بعد حين. كنا نشاهدهم خلف العجلات أو بجانبها، ومن كان في المقدمة فهو برتبة أعلى ويقود دراجة صفراء وشعره لامعُ تحت الشمس.

كانت بريطانيا العظمى، إمبراطورية في حسابات الزمن، تمتد إلى ما وراء البحار، أما المستضعفون الذين جاؤوا من القرى المجاورة والتأموا عند "السيفون" فلا تمتد أطماعهم أبعد من المكان الجالسين عليه. لم نكن نحلم بكرم العنصر الآسيوي أما البريطاني المعتد بانتمائه إلى مملكة لا تغرب عن أراضيها الشمس، فقد كان عرضة للإصابة بنوبة كرم اسكتلندي. وقد يرجئ نوبته إلى أن نفاجئه ملوحين بالنصر.

عندما كنت في تلك السن لم أكن أعلم أن العسكر يظهرون فجأة ويختفون، لقد غذوا السير، تواروا، ضاعوا، تلاشوا تماماً، وغبار ردم عجلاتهم أتت عليه الرياح.

تركت الصدى ورائي وعبرت الساقية وقادتني قدماي إلى فضاء واسع كراحة اليد، واستلقيت على ظهري أنظر إلى السماء في ذلك الصيف فلا أرى غير طائر القطا ولا أسمع غير النغيط، وكما لو كنت بين اليقظة والنوم تيبس على شفتي الحلم.. ورأيت الجنون والنيران وضفائر الريح وخفقة القلب بين الحقول، غارت تحت جلدي وذابت.

أصبح بيننا موعد عند الساقية، موعد غير مكتوب، كان منقوشاً على ذاكرة المكان، أطيل النظر أتأمل وجهها وخرزتها الزرقاء المدلاة بخيط، وأنا مستلقٍ تحت الضوء، نظيره.. حلمي الأول كاليقظة وصلصال روحي بين كفيها كساعة رملية يتسرب على وجع تقلبه كلما نفذ الكأس فيعود شحيحاً مقتراً من جديد.

لكني فتى بدائي لم تقطع قلفتي بعد، ولم يتسلل إلي سوى تكسر الموج وخفقة الريح، ووشوشة السنابل الصفراء،

وأصابع السكر التي أقايضها بصاع من القمح مع "الـــدوار" القادم على حماره بين البيـــوت وفـــي ســـاحات الحـــصاد، محتضناً خرجه المعبأ (بالديرم)[1] وألوان أعرفها وأخـــرى تعرفها النساء.

عندما نادتني لأنقذ خرزتها من وهّدة المنحدر، لمحـــت في عينيها طيف دمعة، وهي تقول بصوت مخنوق "خرزتي" لم تضف كلمة أخرى، يبس فمها وأومأت إلى البئر.

مازلت أعيش طيف دعوتها كأنها الآن، انحدرت صافاً ظهري إلى جدار المسرى، وهبطت بـــبطء وئيـــد، وحـــزام المضخة أمامي كالموت يحوم، ثقل الـــصوت المـــرتج فـــي الحوض، فأدركتها في غفلة الموت، كانت على الشفى، وكما لو كان حلماً، أطبقت عليها كمن يطبق على صرخة بلهـــاء، وعدت أقهر العتمة، ولما بهرني الضوء، شهقت، لقد أنقذتها، بادلتني نظرة صبي، ومدت لسانها ترطب شفتها السفلى.

"لقد تأخرت كثيراً" قال أبي، جاءت عمتي، وجاء أبـــو كتف، وجاء الطبال، كان صيفاً، كان يوماً، أمسك أبو كتـــف بمعصمي وساقني إلى مطهر الأولاد،، وأنا أرفل بدشداشـــة بيضاء، لم يكن من اللائق أن أغـــرز رجلـــي فـــي الأرض وأرتمي إلى الوراء وأرجع القهقرى كما يفعل الأطفال، ماذا أقول لها، ذلك لا يناسبني وقد بلغت مبلغ الرجال، ألم تقل لي وهي تضحك "لقد تأخرت".

---

(1) الديرم: أحمر شفاه محلي.

إن موعد ختاني مرسوم بعناية، وستتكئ عليه مواعيد، وفات أبي أني سأتكئ أيضاً عليه، قادني عمي أبو كتف وفمه مفتوح إلى آخره حتى بانت مؤخرة حلقه، وأسنانه واضحة صفراء كل واحد منها على انفراد، وبدا بملامح أخرى غير تلك التي عرفتها عندما عافنا ومتاعنا في غشاوة الصراة.

الطبل يضرب بشدة، الدوي يملأ قلب الدار، ودبكة الفتيان تربكها الزغاريد، وتلتئم النساء بأغنية رائجة، سرعان ما تنفرط بين الضحك والحياء، وتتعالى الزغاريد شمر أبي عن كمه ونحر بعض شياه وقال "كلكم مدعوون على العشاء".

ويضرب الطبل وأنا مقطوع القلفة ممدود على الفراش، تخرج أمي لتخلع حزنها وقد اكتساها حياء أعرفه، تميل جهة النساء، وتتجه إليها الأنظار، وتمسك الشال ويهبط الإيقاع، سترقص- كلا لن ترقص... الكل بالانتظار، وكما يجدر بأم في ليلة ختان ابنها الوحيد الذي تأخر كثيراً، ترفع ذيل عباءتها، ويخيل لي أنها دبكت، وربما اهتز خصرها، إلا أن المفاجأة كانت مربكة، عندما كورت الشال ورمته بوجه أبي، وعادت وهي تغالب دمعة قبل أن تغلق باب حجرتها، دمعة لم أكن أعرف إن كانت دمعة فرح أم هي دمعة مهداة لروح أخي الذي ظلت ذكراه تأكل بحزن طاحن سنيها حتى آخر العمر.

الصبي

عند ملتقى درب النهر بدرب القطار تتـــشابك الرغبـــات وتتقاطع باتجاهين، بين الذين أتموا الزيارة وجاؤوا منحـــدرين بالزوارق إلى الشريعة، وتسلقوا العرقوب الرملي، واتجهوا إلى ساحة المحطة، ليأخذوا عربات العودة، موشـــحين بالـــدعاء، يعاكسهم اتجاهاً من رماهم القطار في الساحة، وانحدروا إلـــى الشريعة ليأخذوا ذات الزوارق، وينحروا الماء صوب المـــزار المطل من عليائه على النهر المتعجل دوماً إلى الجنوب.

لقد خلق القطار في هذا المكان فرص عمل وأوجد مهن طارئة، كبائع ماء، يضلع على قدم واحدة بدشداشة قـــصيرة وينادي بالفارسية (أين أو) ويعني هذا ماء أو هذا هو الماء، إضافة إلى مهناً أخرى مثل عتال عند باب الشريعة، أو بائع جائل في ساحة المحطة لأرغفة الخبـــز الطريـــة والبـــيض المسلوق.

أما مهنة المراكبي فأعلى شأناً، ولم يكن أحد من ساكني دور المحطة أو من ساكني الدور الطينية المجـــاورة يحلـــم بالارتقاء إلى مراقيها.

***

ضجت الشريعة بالعائدين من الزيارة وغصت بالزوارق الراسية وتعالى لغط القادمين وهم يهبطـــون عنـــد الـــشاطئ متماسكين متكئين على بعضهم خشية السقوط، هبـــوا بتـــؤدة

يحملون أمتعتهم وأفرشتهم الضامرة وتسلقوا المنحـــدر بأقـــدام مبلولة متجهين إلى الساحة، وانفرطت حقائبهم عند الطلوع.

سُتر خط السكة العاري تحت فيء العجــلات، وهــب الباعة فرحين يبسطون السلال، وأســرع البيرقـــي يوســـع للعربات القادمة ويعلن بصافرته نذير الحذر، واستمر إلى أن همد صريرها معتلية الخط الأفقي، مستكينة قبال بناية لهـــا أعمدة من خشب وسقف من صفيح، تقدم وفك لجام القـــاطرة وأطلقها إلى المحطة الفوق وعاف العربات لوحدها لتستريح، فما كان من الهرج إلا أن يدور، وتدافع الذين جاؤوا للزيارة عند السلالم وانخرطوا بالنزول، وما إن لامـــست أقـــدامهم الأرض حتى تحولوا إلى النوافذ وبدأ الواقفون خلفها يـــدلون لهم بالحقائب والأمتعة، بين إيماء وصفير، وما لبثوا حتـــى انحدروا إلى الشريعة وقفوا أمام الزوارق وفي داخلهم خوف من ركوب الماء. وكلما امتد نظرهم عبر النهر وتراءت لهم القبة المذهبة من بعيد ارتد خـــوفهم واســـتوطنوا بالـــدعاء والصلاة الصامتة ممنين النفس بلمس الضريح.

***

كان حارس المحطة يرقب المشهد متنقلاً بين الـــوجلين الواقفين عند حافة الماء وفي داخلهم رغبة لتحدي الخـــوف وبين من عادوا للتو وقذفتهم الأشرعة على الشاطئ وتسلقوا المنحدر متعجلين الرحيل.

كان الحارس حيادياً بين نبض اليـــوم المعـــاد وبـــين الرغبتين، إنه يعلم أكثر من سواه أنّ هذه الحركة كموجة لا تلبث أن تنحسر وترتد وسيخلد للنوم عندما يخلو المكان ولن

تبقى غير الكلاب السائبة وهي تمد أنوفها وتشم الأرض بحثاً عن بقايا طعام.

***

هبت نسمة رطبة انتعشت عند الشاطئ وفوق صفحة الماء. لفت حول الأشرعة البيضاء، وبقيت تدور، ولم تواتيها ريح لتنهض بها وترفعها إلى الجرف وتطلقها في الساحة كما يحدث في أوقات الفرج من النهار، ظلت النسمة تراوح في مكانها، وظل كل ما هو خارج الظل ساخناً في الضحى الساطع كأنه جزء من الجوف الهامد لذلك التنور القائم خلف السياج.

لم يكن مكترثاً للنسمات العصية، كان يتطلع إلى التنور باهتمام، ويفكر بالسيدة المزروعة بلا ظل، وهي ترقبه لعله يلوح بين العابرين. رغم وساوسه الصغيرة ارتسمت على وجهه بعض علامات الرضى. وقال في سره: لقد بعت آخر ما تبقى، ولم يعد لي من عذر، لابد من موافاتها الآن. بسط الصرة جمع بقايا النتف اليابسة وطوح بالقماش فتطاير الغبار، انزلقت يده إلى جيب الدشداشة تحسس القطع التي جمعها داخل الكيس وهو يرقب السيدة عند طقسها الطيني، وقد مالت وارتدت برغيف، وعادت لتستل آخر، ولما انتهت نشرتها، وتركت السجر خلفها ومدت بنظرها إلى أمام، وهي تدعك عينيها، متطلعة من تحت أهداب عصبتها السوداء إلى السوق الذي سيفقد وظيفته بعد قليل.

نقلت خطاها إلى الوراء وجمعت أرغفتها فوق بعضها مسحت بظاهر كفها بقايا رماد، وعادت ترقب من جديد.

مسك الصبي صرة القماش، طواها فوق جبينه مندفعاً وراء نزوة عابرة منحرفاً نابذاً طريقه المعتاد، سلك درباً آخر،

كأنه أراد أن يفاجئها عند كومة السجر، لكنها ضبطته، كانت تقتفيه من بعيد، ولما وقف أمامها أطرق ملياً، وبقيت صامتة.

ظل بينها رواق التنور كأنه نفق خامد لولا لهيب مغالب تحركه نسمة عابرة بين الحين والحين ليمد لسانه بسعير فيرتد ملسوعاً كلما طال قدميه العاريتين، وهي ترقبه بنفاذ.

لم تلبث أن أطلقت صوتها الأمر:

- هات، باسطة كفها الرطبة.

بدا الصبي ممتنعاً، إلا أن صوتها جاء قاطعاً (هات)... طالما دفعه هذا الصوت إلى الهروب.

كانت تحاصره ليعدو موغلاً، متوارياً خلف العجلات، أو منحدراً مرتمياً فوق الماء ليدفن أوجاعه، تمنى لو انتعش بنسائم النهر بدلاً من ضبطه عند الرواق، مازال صوتها داخل عروقه ممدوداً وكفها رطبة بعد أن سكن الصمت بينهما، تحاشى أن ينظر إليها، وقال بنفاذ صبر:

- خذي، ولما نظرت إليه رمى كيساً صغيراً على حافة التنور.

- لماذا تتلكأ؟! قالت معاتبة، وأردفت: ألا ترى الذي نحن فيه؟! وأنت تعود محروقاً كقطعة الكبد، ألا تحزنك الخيبة؟

أطرق برأسه ونظر إلى أسفل، مازال الرواق قابلاً للسعير، تمتم وهو يرتد ثانية مبتعداً عن شرارة نافرة وقال:

- سأواصل بيع الأرغفة في المحطة الـــــ... وترك مساحة صمت عندما أحس أنه ارتقى درجة أعلى متجاوزاً حاجز الأماني، نظرت إليه بارتياب وقالت:

- أتريد أن تلحق بأبيك؟!

– أبي غرق، قال بحذر.
– اسكت يا ولد، من قال هذا؟
– جواد يقول غرق في النهر.
– اللعنة على جواد.
– جواد ابن أخيك.

إحساسها الداخلي يقول: إنه موجود، وإذا كان قد غاب عنها فهي لا تريد أن تغيبه، حتى أشياؤه بقيت في مكانها وما زالت تعلن عن حالة حضور، إنه موجود في مكان ما، ولأنه اختفى بلا مقدمات، سيظهر مقتحماً حالة الانتظار. الصبي وإن كان يقاسمها الهم، فهو لا يشاطرها الإحساس، فقد كان يرى في العيون حكاية أخرى تدور ويسمع إشاعات عن الليل الذي طواه مع الغجر، ولم يعد يعرف إن كان قد تخطى محطات أبعد من المحطة الفوق، أو غرق كما يقول جواد. بقيت الذكرى تمثل حالة توازن يتكئ عليها إن عاد من المحطة الفوق أو من التي ما بعدها. ما أكثر المحطات المغروسة مع الامتداد البعيد، ولكن كيف ستكون المفاجأة وهو غير مهيأ لها، إذا عاد على وتر ربابة أو صوت ناي مع القادمين بلا مواسم في أوقات لا يعرفها، عندما يظهرون ويحطون رحالهم على غير موعد ويدقون الأوتاد وينصبون الخيام. لذلك لا غرابة أن تطوع جواد لخنق الإشاعات المترنحة بين الشماتة والإشفاق، وابتكر الحكاية، عندما وقف بباب الشريعة وأشار إلى الموج الذي يتحول ساعة الغروب إلى تيار يدور، وقال: غرق في هذا المكان. لكنها رفضت أجله الموعود، وأنكرت، لقد كان سباحاً ماهراً وعرف سر الأمواج، فكيف يغرق وهو المولود فوق سرير الماء؟

الإشاعات الصغيرة، إما تموت أو تتشطر، كان لابد أن تتشطر لمقتضيات الزمان، جزء منها ارتحل، وآخر أصـــابه البلل، ولكن المرتجى لديها ألا تطغى إشاعة الغـرق علـــى إشاعة الرحيل، لأنها لا تريد أن تلغي حالة الانتظار.

قال وهو يحدث نفسه: لو عاد أبي -أين أجـده؟- فـي الشريعة. في المحطة الفوق؟ وهل يرضى أن أجـول علــى الرصيف؟

نظر إليها بصمت وعاد يرمم بعض ما تداعى، وقال:

سأبيع الأرغفة قبل دخول منافس، وقبل أن يغلق ســوق القطار، إنه أعرج، يقف على قدم واحدة، ولا يطأ بالأخرى إلا بعد أن تعود القاطرة وتلتصق بالعربات، رغبات المتمـردين متنازعة ولا يحسمها غير النعيب، قال ذلك وشعر أنه أبــدى معرفة طيبة... وأضاف: كنت أنادي بالأرغفة المحنطة طوال الوقت، ولا أستطيع أن أجبر أحدهم على الشراء، ويـساعدني جواد على التخلص منها قبل أن ينفذ الوقت، نظرت إليه بإنكار وزادت كيل لعنة أخرى إلى جواد وقالت:

– نفسي تضيق كلما ذكرت اسمه اللعين.

وفي تلك اللحظة بين التردد والاقتحام خطف الـصرة واحتواها بحركة ساحرة، وعدا مسرعاً، كالهارب من قـدر مؤجل، مضى باتجاه تلك العربات التي نضجت تحت وهــج الشمس.

لم يتمهل أمام فتحة السياج، فهو يعرفها وطالما عبرها من هذا المكان، طوى أذيال ثوبه متفادياً الأســلاك ومـرق كالسهم من بين الأسنان الـشائكة، ومـضى يـركض وراء صوته المتعثر بين الأصوات، ارتخت أجفانها تحت أهــداب

عصبتها وهي تلعنه بفتور، ربما لم تعد تأمل بقطع أخرى قبل عواء القطار، وقبل أن تخلو الساحة وتحتلها الكلاب. ما لبث الصبي حتى بلع صوته، وتسرب في زحمة الخلط، الغريب، وتاه لاهثاً مع أولئك الذين أدمنوا الخطى جيئة وذهاباً يتطلعون إلى الجالسين خلف النوافذ يرقبون مشهد الساحة بكثير من الفضول.

كان عليه أن يقطع الرصيف بخطوات عجلى متخطياً الزمن الشحيح ولا يفكر ببيع شيء خارج الأسلاك، ولا حتى عند بوابة الماء.

لبضاعته مكان مرسوم عند خيط الظل مع امتداد السكة بمحاذاة العربات ذات الأبواب العالية والنوافذ السوداء، إنها بضاعة لزبائن بعينهم، للعائدين من الزيارة، لا تتعدى سواهم، إذا رحلوا سقط حضورها، وعليه أن يواصل بأرغفة طرية، ويبدأ بيوم جديد وبخطوات أخرى، وكم تمنى ألا تكون في هذا المكان.

يمتد الرصيف الترابي محاذياً قضبان السكة المتوازية، وينكسر الضوء تحت العجلات، وتحت ثقوب الأبواب، وينشطر بين الفتحات، وتظهر ذرات الغبار سابحة بين الشقوق وترتخي نوافذ العربات مع الامتداد في تلك الظهيرة كعيون غالبها النعاس.

هذا جواد فاجأه معلقاً بحافة الباب، كيقظة صيف ممسكاً بمقبض الصعود، تمهل لملاقاته، احتضنه بابتسامة اجتاحت عظام وجنتيه، إلا أنه استدرك ليسأله مستطلعاً شعره المشطوف:

- أين كنت؟

رد عليه ببرود:

- في الشريعة.

اعتصرته الإجابة، وتساءل عن السر الذي جعله مبتل في مثل هذا الوقت من النهار، للنهر طقوسه، والأقدام لا تنحدر إلا بعد أن تغلق المحطة ويركلها القطار، في ذلك الوقت يكون البلامة قد هربوا متعجلين يجرون لهاثهم، وكلما ابتعدوا عن المكان تلاشت أصواتهم المبتهلة بالدعاء.

سأله جواد إن كان ثمة ما يشغله.

رفع الصبي نظره إلى حيث هو مدلى، متخطياً الإرباك وقال:

- السوق.

كان يعلم أن جواداً سيقفز داخل العربة ويتربع منتهكاً المقعد الخشبي ويتسلى بمنظر السوق، وسيطل من النافذة ويلمحه وقد توارى بين أعمدة الغبار، مغروساً في المكان الذي يكره أن يكون فيه، ربما يبتسم له ابتسامة لئيمة مع تلويحة عابرة متحدياً رغباته المؤجلة، ويتركه مهملاً عند أقدام الصفيح جنب عارضة خشبية تحمل اسماً خط على رقعة صفراء، لذلك كان يرفض صورة جواد المتقدمة عليه، ولم يعد قادراً على خنق هذا الشعور، حتى وإن نتفت كل أهداب عصبتها السوداء .

الحركة على أشدها والهمس يتعالى، والعيون مرتقبة بانتظار القاطرة المنحدرة من المحطة الفوق لسحب العربات، ستأتي مدبرة، وعند ربطها تنطلق دون عناء، وإذا جاءت مقبلة سترتبط ومؤخرتها إلى أمام، فلا تنطلق كما لو كانت برخاء.

الصبي يعرف هذا الاختلاف، لذلك يكون قد احتاط وهو يرتقي السلم ليغري أولئك الذين بقوا مترددين حتى آخر الشوط.

إن وضع الإدبار سيساعده على الهبوط قبل أن تتسارع وقبل اجتياز نقطة المطلاع .

العربات واقفة بثبات، القاطرة تتقدم، تتعالى الأصوات، ظهرت من بعيد، ينبض المكان بالضوء، يشع، يمتد، يزحف، يلج النوافذ السوداء، تقدمت القاطرة مدبرة على نفس الخط وهي تحرك أذرعها الجانبية وسط البخار وقد علاها دخان معتم، أحس بالانقباض، تابعها ببطء، توقفت عند حافة الوقوف. كان هناك عامل قطار، ممسك ببيرقين ملونين، لوّح بإشارة التقدم، تحركت ببطء مميت، إلى أن لامست العربات الواقفة. سرت رعشة خفية امتدت لكل فواصل الانتقال المربوطة ببعضها. تقدم العامل، ركب الحلقة في مخلب الجر، بدأ يبرم لولبها الحلزوني، تقلص الارتخاء، استقام الرابط، وانسل من تحت طاستي التصادم، انتحى جانباً، رفع بيرقه ذي اللون الأخضر عالياً خفضه ملامساً الأرض، أعاد الكرّة ملوحاً مرة أخرى.

يبدو أن السائق غير مكترث، لقد ترك قمرته وهبط ليفتح صنبوراً وتجمّع حوله صبية يحملون علباً فارغة وتدافعوا لملئها بالنفط، ولما فرغوا ارتقى السلم وارتفق حافة النافذة، وببطء شديد استجاب لإشارة البيرقي، كأنه يتدرب على تلقي أوامر من هم في درجة أدنى. لم يتأخر طويلاً حتى أطلق صوتاً خافتاً كعواء كلب موجوع، وأتبعه بعواء طويل. دارت الدواليب متمهلة ثم تمادت تحت فعل التعجيل، وتلاشى صريرها المحتك بباطن القضبان.

في زحمة الهرج الذي أحدثه دوي القطار، أراد الصبي أن يلحق به، أراد أن يكون مثل جواد، اجتاحه هوس، ركض بجنون، وتحت أضلعه أرغفته الطرية.

أمسك بيد واحدة المقبض الفضي المتعامد مع باب العربة، ووثب إلى الدرج، انزلقت قدمه، انفرطت في الهواء، تشبث بقوة، فاحت رائحة كفه الممزوجة بالزيت والدبق وبقايا البيض المسلوق، تسارعت عجلات القطار المندفعة إلى أمام، انخرط كخيط أخير، ندت عنه زفرة مكتومة وارتعاشة، كان خيط الدم ظاهراً عند الأذن، والدشداشة منحسرة عن ساق نحيلة، وقد غشاه الصمت.

أحاط به حمالون وعمال محطة وباعة ومتسكعون، لم يكن أبوه الغائب الوحيد، الآخرون وارثو الجلد، غابوا، رحلوا يجرون زوارقهم عكس التيار وحز الصواري كسياط لاذعة على الظهور، همهماتهم مبهمة، ودعاؤهم متجدد بالمغفرة لعمل لم يدون كخطيئة ولم يسجل من الذنوب.

اختفى القطار كنقطة بعيدة، وترك وراءه جثة هامدة، وقضباناً عارية، وساحة مقفرة، ومحطة مهجورة وكلاباً تشم الأرض بأنوفها بحثاً عن بقايا طعام.

اللوحة(*)

في الظهيرة عندما يغمرها ضوء النهار تتوضح هذه اللوحة بكثير من التفاصيل الدقيقة، وتبدو جلية إلى حد كبير، إن الصورة وعلى الأرجح قد التقطت عند الفجر أو في سويعات الصباح الأولى وربما قبل بزوغ الشمس، ورغم طيفها إلا أن أي أثر للون النافر غير موجود، إنها ملونة بمسحة ضبابية شفافة كحلم متعثر عند أقدام شاطئ بعيد أو شيء غريب سطا عليه خداع النظر.

الصورة عبارة عن قاطرات بخارية تتحرك إلى الأمام نافثة دخاناً أسودَ من فوهات أسطوانية، الأولى أشد كثافة وأكثر وضوحاً، تليها الثانية... وهكذا، لكن الدخان يختلط عند الرابعة وربما هناك خامسة ولكن الامتداد الخلفي ليس له تقاطيع كما هو عند عجلاتها وحركتها الناقلة وقمرة القيادة ومؤخرتها التي هي بهيئة حوض مربع ثقيل. هذه التشكيلة المتكررة؛ و بتفاصيل تبدو غير واضحة ؛ لا يمكن التركيز عليها، وتموه كلما امتد النظر مع امتداد أجسام هذه

(*) هي لوحة افتراضية تجمع بين آلة التصوير والفرشاة، وهو نمط حديث، ومن أهم اللوحات التي ظهرت بهذا الأسلوب هي صورة (أوسي كلارك وزوجته) للفنان (دافيد هونكي) المولود عام ١٩٣٧، ويعتبر من أشهر الرسامين الإنكليز في القرن العشرين.

القاطرات، هل من الممكن تحويل هذه الصورة إلى امرأة...؟ إن خلق أتباع يؤمنون بهذه المقدرة يبدو عصياً، بيد أن الأمر فيه لغز ليس بالعسير، ستتحول هذه القاطرات ببساطة شديدة إلى امرأة تنام مستلقية على جنبها الأيمن عندما يصحو بعد منتصف الليل، وسوفَ يجدها كما عهدها تشيح بوجهها، لذلك حرص ألا ينير أي مصباح، وينسحب بهدوء ليتركها مستريحة ومسترخية باستلقاءتها هذه، إنها تنام بحرية، ربما تفكر بأشياء أخرى لعل من بينها هذه القاطرات المربوطة ببعضها والتي تلتهمها في النهار.

تحتل اللوحة مكاناً منسجماً مع جميع مكونات الغرفة فهي مدلاة بمسمار ضمن مسافة محصورة بين الجدار والنافذة، وملحقة مع ستارة النافذة الرقيقة ولا تحجبها إذا أزيحت جانباً، هي تزاح إلى الاتجاه المقابل لمستطيل اللوحة، في مرات عديدة أحس أنها تتحرك إلى حيث الضوء الناهض مع الفجر، في هذا الوقت من الصباح يستطيع أن يشكل الصورة على هواه، فإذا شاء تركها مستلقية غير واضحة، كما لو أنها مغمورة بالماء، بقليل من التركيز ومن زاوية ضوء متسلسل مع الفجر الأول؛ تتحول الصورة إلى مجموعة قاطرات تتحرك حول نصف قطر منحني عظيم أوشكت اجتياز الجسر ذي الأعمدة الساندة، ولكن لا يمكن لهذه القاطرة الأمامية أن تتجاوز الإطار وإلا سقطت فوق السرير الذي طالما سهد عليه وهو يفكر بهذه التي أشاحت عنه وأدارت ظهرها وانحرفت قليلاً في رغبتها لتريح هذا الجسد الملتصق ممتداً مع الذراع، شعرها متسرب بعفوية

إلى ثنية الخصر، ذراعها عارية من الأعلـــى، تمتــد لينـــة، يخالها تلتمس شيئاً ما بأناملها لكنه غيــر بــيّن، الــصور لا تفضح تماماً. غرز سوداء تتخلل الذراع خيوط حريرية غير مألوفة ودانتيلا موشاة من النوع الذي ينسج في الليل، تنزلق فوق الكتف، ولا تحجب شيئاً، لقد بانت في خــدر، الــذراع والغرز الحريرية السوداء مشغولة على مسافات تبــدأ مــن رمانتها الملساء، منسابة إلى الرسغ، الكتف غيــر واضــح ومموه، ويشكل صورة متداخلة مع سحرها الغامض.

حجر كريم بلون الفجر، مغروس في شعرها فوق الأذن اليسرى، في زاوية تجعلك تشعر بالحيرة عن سر غرزه في هذا المكان، إلا أن شكله مع خصلات شعرها الناعم متنــاغم تماماً، إنه أشبه بالضوء المتأرجح بين طيات الموج، يغالــب ظلمات البحر ليهديك إلى فنار مرفأ بعيد، انحنــاءة الظهــر مثيرة والشعر الأسود مسترسل بتجعد خفيف منحدر مــأخوذ بإغفاءتها وتبقى نهاياته بلا معالم، إنها متداخلة مع الفــستان الذي بان مطوياً ضيقاً تحت الخصر، إلا أن هــضبتها قــد طغت على أشياء تبدو هفهافة عندما تخطف النظر وقبل أن تمعن بالتركيز، تتكشف وضوحاً كلما تقدم الفجــر وتــسلق الصبح أطراف النخيل، الشيء الذي يشغل كثيراً هــو ذلــك الشبح الحلزوني الأسود، الذي يرتكز بمخروط مقلوب، جوار القرط، ومبروم كزوبعة مباغتة، استقر مداها، عند الإطــار العلوي للوحة. هناك فتل في بداية ارتقاء الردف، وفي التلة، وربما آخر يطمع بالتسلق، إنها رماديــة جــاهزة، إلا أنهــا ضاعت وسط فوضى هذه المراقي، لماذا هي بهذا الوضع؟،

ولماذا اختارت أن تدير ظهرها؟ إن الفستان لا يفصح عـن شيء، ولم ير سوى ذراعها الأيمن، كلما أمعن النظر أيقـن أنها مستلقية بهذا الامتداد لغاية، إلا أن تكوينهـا وشـعرها وذراعها وهضبتها وملامحها الغائبة قد أربكته كثيراً، ما بعد التثنية وتحتها مباشرة يتغير لون الفستانّ، يشي بلون آخر لو أسقطت خطوط العرض على التكور الرخص لوجدت أن هذا المرتع المكشوف يتجاوز حدود الخطوط الحمراء.

هذه المرأة التي يشع من تحت ردائها ألق سحري يلونه فرح طائر أبيض بين البحار والحقول، تشيح بوجهها غارقة في الياسمين، لا أحد يعلم إن كانت متوثبة لحلم أو خـدرة أو تفكر بشيء جديد، هو في عداد الذين يجهلون، هي تـساكنه، لكن أدارت ظهرها وتركته نهباً للظنون.

عندما ينتزع اللوحة ويبسطها يكشف أشياء أخرى، هذه الصورة احتوت (بندول) في الجزء الذي يقع فـي الزاويـة السفلى من الجهة اليسرى وله مؤشران صـغيران يـستدل منهما على الاتجاه المتذبذب، وقد تساءل عن عـدم إضـفاء الأهمية لهذا المؤشر، الملحق قسراً، فأهتدي إلى أن حركـة القاطرات، أريد لها حضوراً، وكل ما عداها إرباك، يحـوم حول رمزها المثير.

يمكن التدقيق أكثر لمشاهدة سائق القاطرة يطل مرتفقـاً حافة النافذة معتمراً ما يدل عليه، وتظهـر أعمـدة الجـسر مربوطة بسلكين متوازيين مـع امتـدادهما الطويـل، هـذه الأسلاك لا تظهر إلا بعد إعادتها إلى خيوط من الحرير، هو يستطيع أن يخبئ الضباب النافث من فوهات الأنابيب في هذا

الجو البارد عندما يتحول إلى نهر من القطن، هذه القاطرات المتعانقة تجتاز الممر الفضي المتسرب من أنابيبها بحركـــة قوية إلى أمام وهي مندفعة نحو الجسر. تتوضح القوائم ببهاء أكثر عند المقارنة بين الأعمدة الساندة والهيكل المثبت بكتفي الوادي. إن الجانب العلوي من الجهة اليمنى من اللوحة يميل إلى زرقة داكنة، وقد تركت هذه الفسحة انطباعاً عن وحشة البعد لذلك الشيء غير المرئي الذي يقيم عندها، لكن العمود اللولبي الأسود الذي تنفثه القاطرة الأولى، تصاعد عالياً حتى أدرك إطار اللوحة، اختزل الدخان جــزءاً مــن الحركـــة، موجات قطنية يلون أطرافها مصباح شحيح تبدد شعاعه عند حافة اللوحة، جسم القاطرة الأماميـــة لـــه مواســير وأذرع ودواليب وأجزاء أخرى مطمورة تختبــئ خلــف الفــيض المتكاثف في الصباح. بدأ يشعر بالصداع، لم يعــد بحاجـــة لإحصاء هذه التفاصيل، تركها معلقة بخيط يــسحبه بجنــون الليل ليقلب رداءها، المشع ألق ساحر ويمعن بذراعها الممتد لشاطئ بحر بعيد، لعله يستجلي شــفرتها ويفــك حروفهـــا المؤجلة. جلس عند حافة السرير متــردداً بإعـــادة تــشكيل الصورة من جديد متخذاً من الوسادة متكأ، بـــدأ باســـترجاع خزين الذاكرة وأغمض عينيه مرمماً أحلامــــه، لكـــن هـــذه المرة، أحس أنه يغالب أمراً ما، في هدأه الليل وقبل أن يسقط إلى قاع الذاكرة تراءت له أطر ومداخل، تملكه هوس مـــبهم ورغبة لتدوين المشهد، ولكي ينتقل من غير تـــوجس بـــين إطار الجسد المستلقي وإطار الضباب الكثيف، نهض حـــذراً طاوياً النعاس الذي كبله في مساءات سابقة وفي نفسه رغبة

لا رشفة اللحظة وما طرأ من ابتزاز. بغتة نظر إلى الأمام إلى واجهة الجدار، أدهشه الهروب، اختفى إطار القاطرات تماماً، لم يعد أي أثر للإشعار النافث، تبدد الضباب، بانت أرسخ، كانت أبهى صفاءً من الليالي الماضية، هاهي التي تدير ظهرها، انقلبت متوسدة نزوتها وأصابعها المعلنة. عندما تخيلها تستدرجه خلف الستار في وضع لا يسمح بالاستجابة، ارتاب بإيماءة يزعزعها اليقين، إنها في هذا الوضع المقتحم أكثر إثارة، شعرها الناعم طاغ مسدلٌ لا يفضلها إلا طرفٍ عن مهابط الليل، لم يتيقن مما رأى أعزى ذلك إلى اختلاط الألوان كان ثوباً بملاسة الحرير، أشبه بثياب الملائكة في الترنيمات ووشوشته كالوتر الهامس، تجاذبته الرغبة، كان عليه أن يغادر دائرة الشك ويتقبل الإيماءة المبهمة حتى وإن لم تكن قد تخطت حافة الإطار، ولكن توزع بين أشياء كثيرة دون ترتيب، ربما هذه المرأة تتوق لرجل آخر، أو تفكر بسفر بعيد خارج إطار اللوحة، حيث أشياء ملونة ورغبات كثيرة في خيالها.

في لحظة امتزاج الحلم، تسرب الدفء إلى الزاوية الخلفية من شعرها حيث ينضوي ذراعها البض.

سرقه السفح، استدرجه المنحنى فسرى في دمه خدر شديد، امتدت يده لانتشالها من الإرباك، ترددت على حياء، تخطت بقدمها العارية إطار اللوحة، رفعت أذيال الثوب وهي تخوض في الضباب، ترقب خطوتها اللاحقة، تجلد الحلم، ارتعش قائم الجدار. إنهم يبحثون عن مرتكبي الأحلام.

عندما فتحت الباب وجد نفسه وحيداً أمام المفاجأة، كيف استطاعت أن توقت وصولها... وتدخل في تلك اللحظة!؟... لم يرفع نظره إليها، إلا أنه أحس بدنوّها من السرير، قالت بصوت اجتهدت أن يكون مؤثراً!

- أرى أن (حالتك) مازالت بحاجة إلى عناية.

تألم، حولت إرهاصاته المرهفة إلى (حالة)، قال بصوت خافت:

- عندما بدأت اهتماماتي التي نسميها (حالة) لم تكن في ذهني صورة جاهزة، وعندما تطورت، فذلك بسبب المسافة التي لم تعد صالحة لإنبات زهرة واحدة بيننا.

- كل باقات الزهور كانت لي وحدي، قالت ذلك لتذكره بالود الذي كان يوماً.

- كنت دائماً أتمنى ألا تضعي نفسك في الكفة المقابلة، حتى لا تخسري وقارك.

- المقارنة مطلوبة حتى أعرف إلى أي مدى تقدمت عندك (الحالة).

انتقل من السرير إلى مقعد قريب، وبقيت هي واقفة، كل منهما يحاول التقاط طرف الخيط، قالت في غصة بادية:

- هذه ليست بالغريمة، إنها مجرد لوحة أربكها الضباب، ولا أدري كيف تتوسد الوهم، إذا لم تتهم بالجنون يوماً، ستتهم بارتكاب أشياء أخرى.

هو يعرف ما تخبئه تحت جلدها، كمخبر سري يترصده مع سبق التجريم، قضمت سنوات عمره، وتحاول الآن

مصادرة أحلامه، قرر ألا يفتح أي نافذة للكلام، لعل ذلك يساعدها على تلمس ذبذبات أشياء كثيرة يود قولها في عتمة الصمت، إن الخيال يختلف حسب موقع زاوية الشكل، ولكن كيف يهتدي لزاويتها الميتة، وقد انقطعت السبل إلى مراسيها منذ زمن بعيد.

فجأة خطر بباله أن يسألها كامرأة مؤجلة في هذا المكان، لذلك رفع اللوحة وأعادها إلى مكانها في الحيز المحصور بين النافذة والجدار، ولكي يكون عادلاً وقف في منتصف المسافة وشعر بالحزن وهو يسألها:

– ماذا يمكن أن أفعله من أجلك؟

– أن ترم هذه المرأة من النافذة.

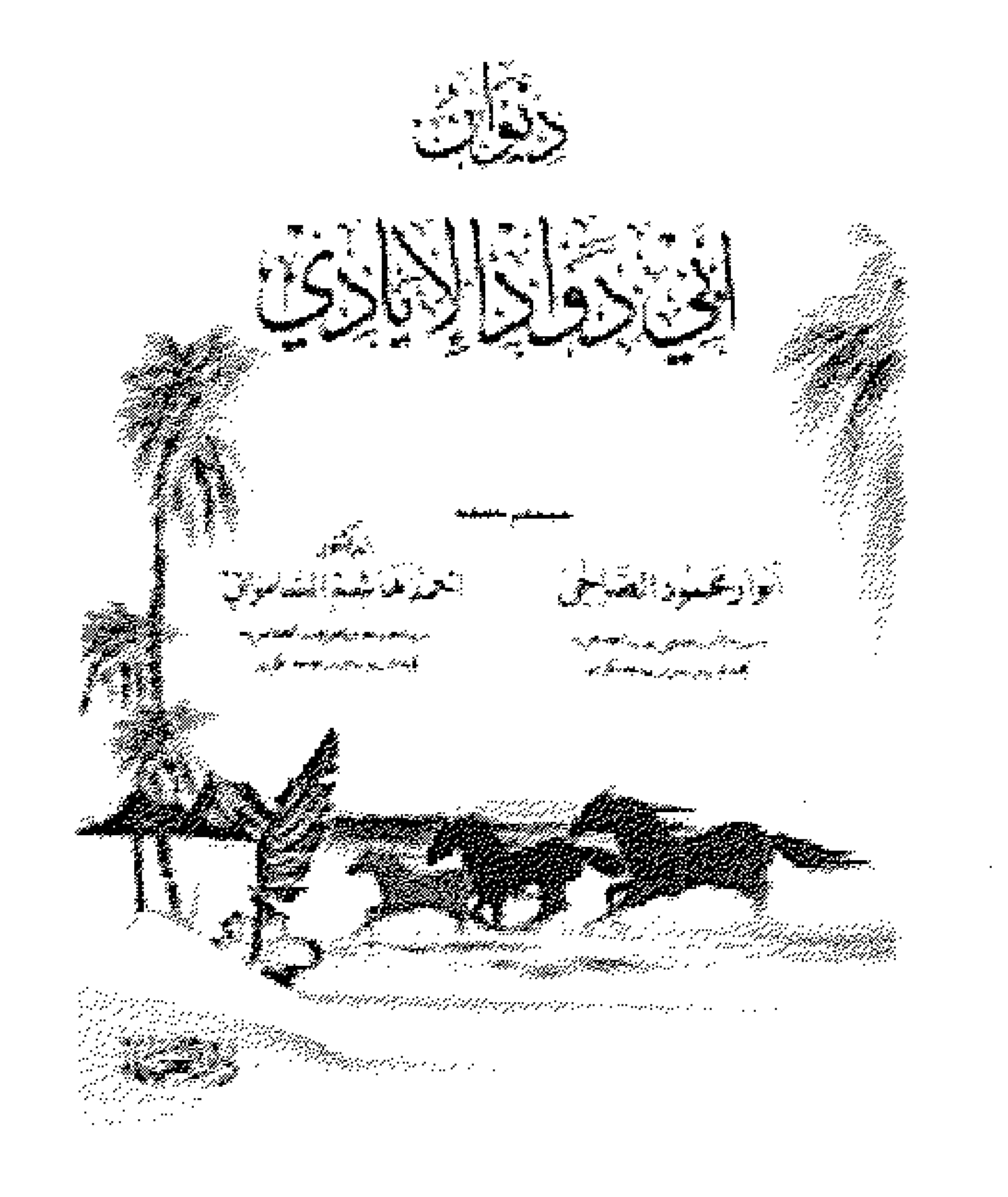
– وإذا لم أفعل؟

– تطلقني.

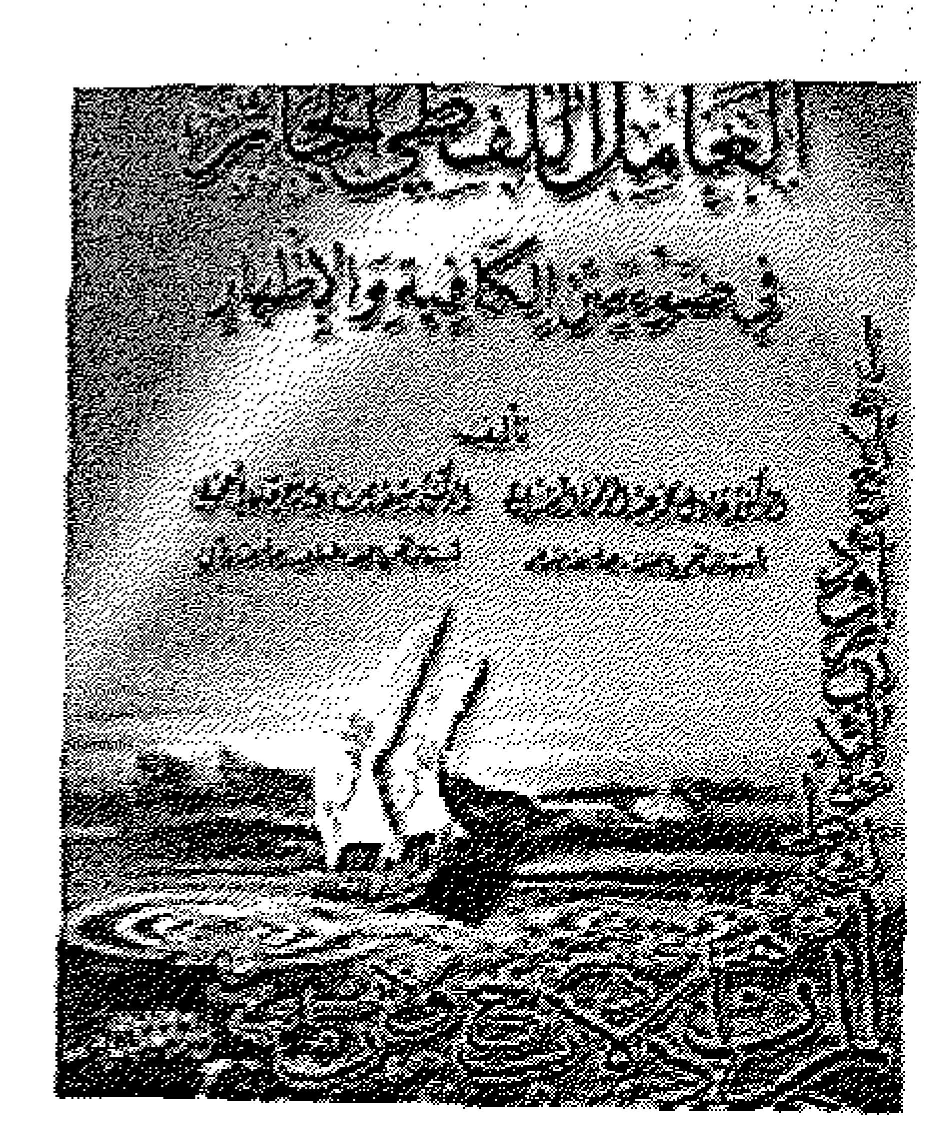
أدار ظهره وانتظر طويلاً حتى تبدد الضباب الذي لف اللوحة، وعندما تعرّف على الفسحة الموحشة لذلك الشيء غير المرئي، غادر صمته وهو عند حافة الوادي وقال:

– أجل، هذا الذي كان يجب أن أفعله منذ زمن بعيد.

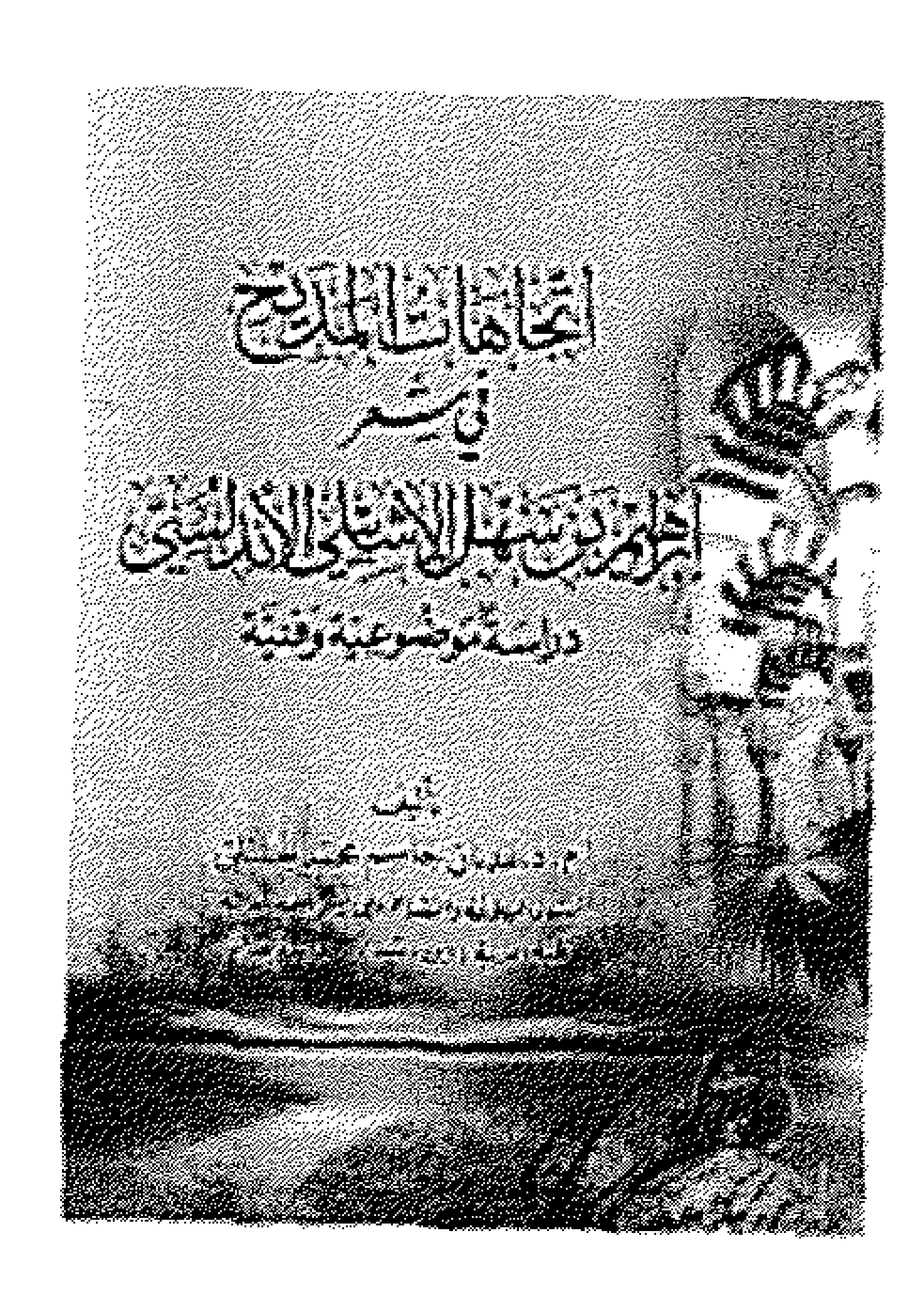
الفهرس


ديوان
أبي دواد الإيادي

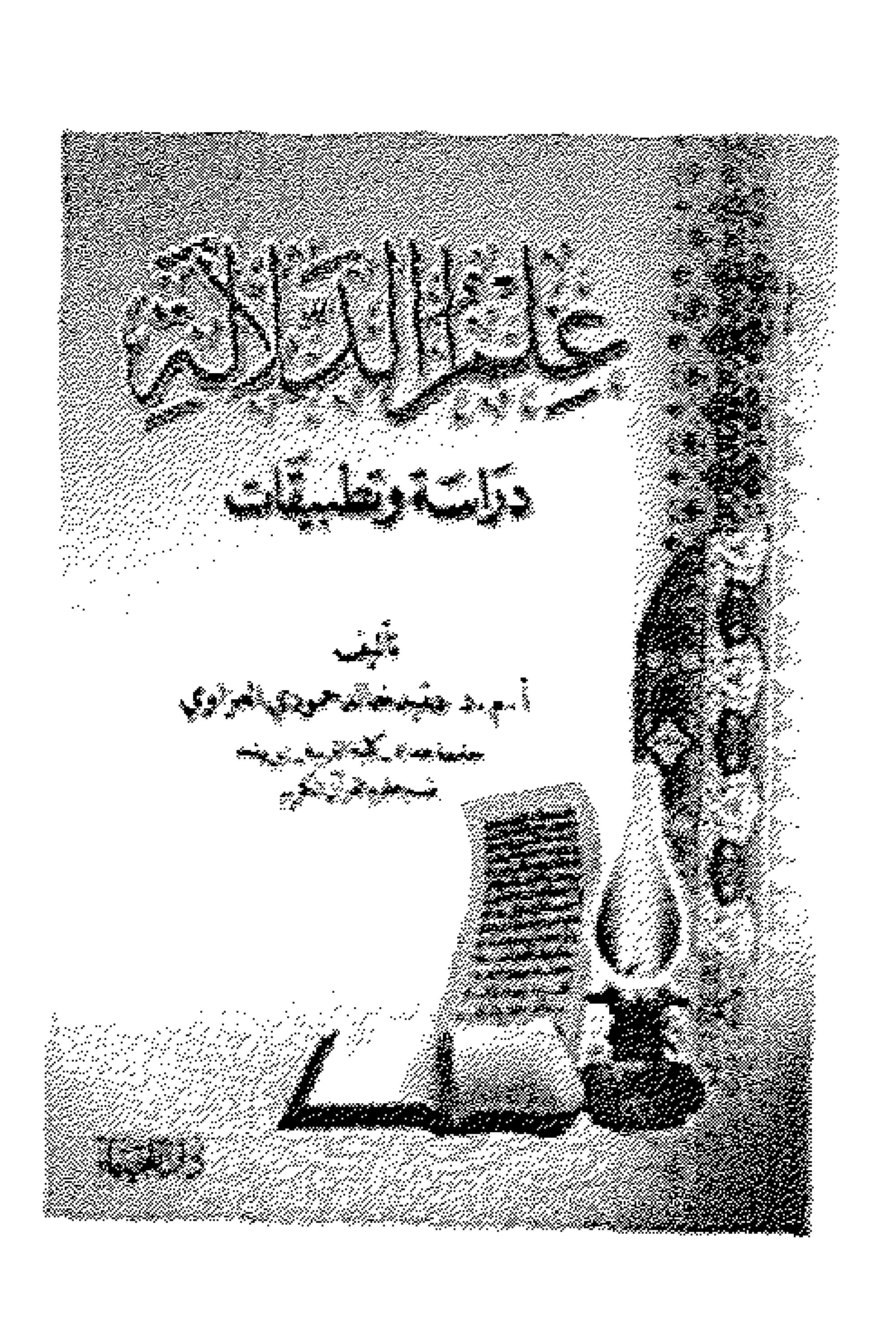





اللهجات العربية
البحث البلاغي
عند الأصوليين
المباحث البلاغية
في تفسير الشنقيطي


اتجاهات المديح
في شعر
إبراهيم بن سهل الإشبيلي الأندلسي
دراسة موضوعية وفنية


نظرات أسلوبية للتغليب
في الخطاب القرآني


علم الدلالة
دراسة وتطبيقات
تأليف

الشوق المتأخر

و

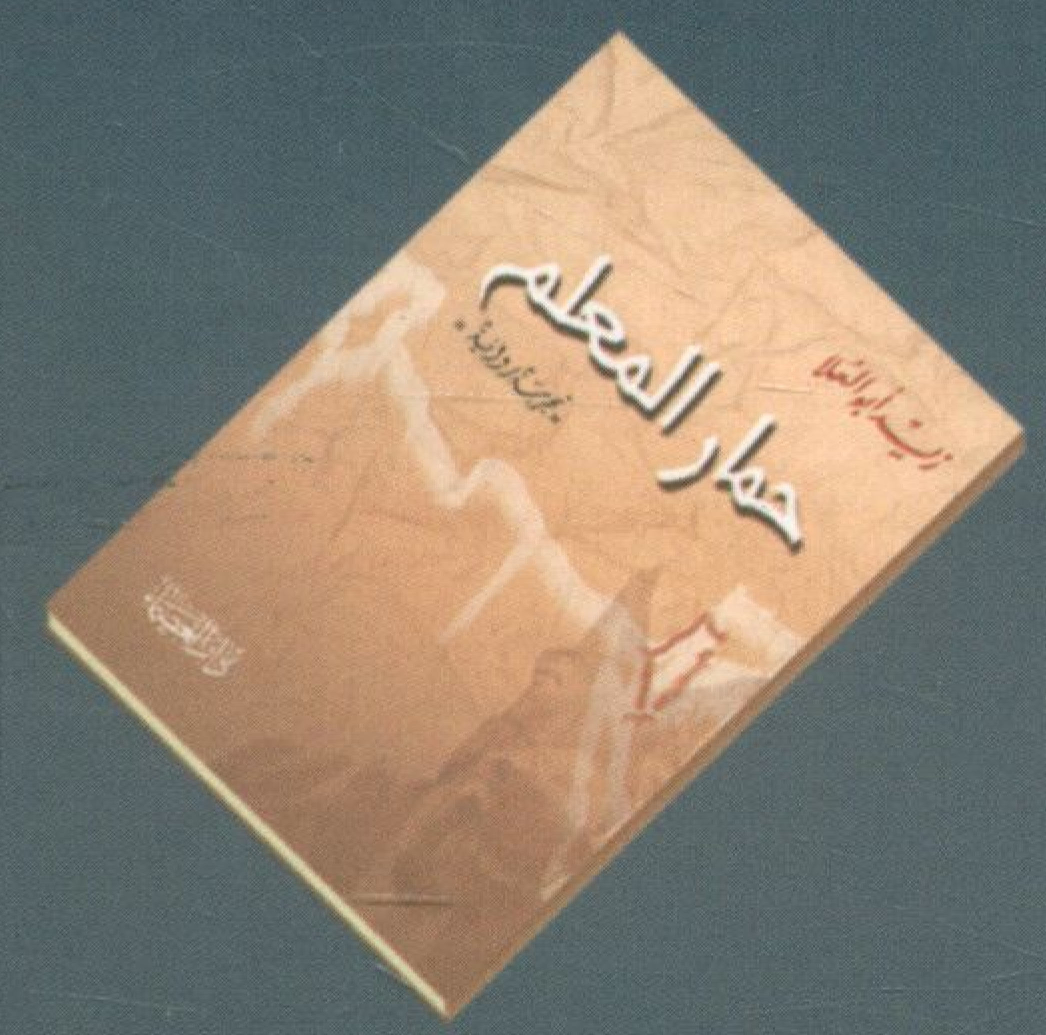
ذاكرة القص (المتحلزن)

كيف يحتوي القص كل هذا التورم الشاخص في عيون الواقع؟ وكيف يرتوي القاص من حمل عيون الماضي المتورمة - هي الأخرى- بإرث كبير؟ كل هذا القدر من أحداث الواقع وشواخص التاريخ جعلت القص هنا وكأنه ينوء بحمل يستوجب طاقة هائلة من اللغة المشحونة بشاعرية قصوى...

إنها مدينة يجتمع فيها ثقل الموروث بثقل الحوادث التي هي من نوع الهزات الكبرى لمتون الزمان، أيقظت في ذاكرة الجملة القصصية رماد ما مضى وجمر ما هو قائم ، فكانت (سُـرَّ مَنْ رأى) بكل ثقلها وإرثها جاثمة كالنسر الخرافي فوق ذاكرة (سامراء) المأخوذة بمجرى شطها وقباب أئمتها المتشظية باتجاه السماء وقطارها الراكض إلى خلف، ووجوه ساكنيها (المستديرة) إلى أمام، علَّ (الملوية) المتحلزنة كزوبعة في فضائها الرمادي تلوي عنق الزمان كي تعيد للنهر أسرار جريانه باتجاه الجنوب.. إنها قصص تبدو للوهلة الأولى مثل لوحة واحدة لكنها في العمق تفيض بأسرار كثيرة.. خارج إطار المكان.. خارج إطار الزمان وصولاً لأسرار ما يحدث في رحم المدينة المدورة (دار السلام)..!!

فيصل إبراهيم كاظم







ISBN 1-904923-85-2

اللوحة للفنان : أسامة حسن